1973

افلة الزيت

محرم ١٣٩٣/فبراير - مارس ١٩٧٣

ARABIAN RESEARCH LIBRARY

RECEIVED
ARABIAN RESEARCH LIBRARY
FEB 11 1973
Binding :

مصحف كريم مكتوب بخط مغربي بديع مذهب ، وهو من ذخائر محتويات مكتبة الأسكوريال الأثرية ..

تصوير : خليل أبو النصر



تقويم هجري - ميلادي
١٣٩٣ (١٩٧٣ - ١٩٧٤)

	محرم		صفر		ربيع الأول		ربيع الثاني		جمادى الأولى		جمادى الثانية		رجب		شعبان		رمضان		شوال		ذو القعدة		ذو الحجة		
	فبراير – مارس		مارس – أبريل		أبريل – مايو		مايو – يونيه		يونيه		يوليه		يوليه – أغسطس		اغسطس – سبتمبر		سبتمبر – أكتوبر		أكتوبر – نوفمبر		نوفمبر – ديسمبر		ديسمبر – يناير		
السبت									١	٢									١	٢٧					السبت
الأحد	١	٤							٢	٣	١	١							٢	٢٨	١	٢٥			الأحد
الاثنين	٢	٥							٣	٤	٢	٢	١	٣٠					٣	٢٩	٢	٢٦			الاثنين
الثلاثاء	٣	٦	١	٦					٤	٥	٣	٣	٢	٣١					٤	٣٠	٣	٢٧	١	٢٥	الثلاثاء
الأربعاء	٤	٧	٢	٧	١	٤			٥	٦	٤	٤	٣	١	١	٢٩			٥	٣١	٤	٢٨	٢	٢٦	الأربعاء
الخميس	٥	٨	٣	٨	٢	٥			٦	٧	٥	٥	٤	٢	٢	٣٠	١	٢٧	٦	١	٥	٢٩	٣	٢٧	الخميس
الجمعة	٦	٩	٤	٩	٣	٦	١	٤	٧	٨	٦	٦	٥	٣	٣	٣١	٢	٢٨	٧	٢	٦	٣٠	٤	٢٨	الجمعة
السبت	٧	١٠	٥	١٠	٤	٧	٢	٥	٨	٩	٧	٧	٦	٤	٤	١	٣	٢٩	٨	٣	٧	١	٥	٢٩	السبت
الأحد	٨	١١	٦	١١	٥	٨	٣	٦	٩	١٠	٨	٨	٧	٥	٥	٢	٤	٣٠	٩	٤	٨	٢	٦	٣٠	الأحد
الاثنين	٩	١٢	٧	١٢	٦	٩	٤	٧	١٠	١١	٩	٩	٨	٦	٦	٣	٥	١	١٠	٥	٩	٣	٧	٣١	الاثنين
الثلاثاء	١٠	١٣	٨	١٣	٧	١٠	٥	٨	١١	١٢	١٠	١٠	٩	٧	٧	٤	٦	٢	١١	٦	١٠	٤	٨	١	الثلاثاء
الأربعاء	١١	١٤	٩	١٤	٨	١١	٦	٩	١٢	١٣	١١	١١	١٠	٨	٨	٥	٧	٣	١٢	٧	١١	٥	٩	٢	الأربعاء
الخميس	١٢	١٥	١٠	١٥	٩	١٢	٧	١٠	١٣	١٤	١٢	١٢	١١	٩	٩	٦	٨	٤	١٣	٨	١٢	٦	١٠	٣	الخميس
الجمعة	١٣	١٦	١١	١٦	١٠	١٣	٨	١١	١٤	١٥	١٣	١٣	١٢	١٠	١٠	٧	٩	٥	١٤	٩	١٣	٧	١١	٤	الجمعة
السبت	١٤	١٧	١٢	١٧	١١	١٤	٩	١٢	١٥	١٦	١٤	١٤	١٣	١١	١١	٨	١٠	٦	١٥	١٠	١٤	٨	١٢	٥	السبت
الأحد	١٥	١٨	١٣	١٨	١٢	١٥	١٠	١٣	١٦	١٧	١٥	١٥	١٤	١٢	١٢	٩	١١	٧	١٦	١١	١٥	٩	١٣	٦	الأحد
الاثنين	١٦	١٩	١٤	١٩	١٣	١٦	١١	١٤	١٧	١٨	١٦	١٦	١٥	١٣	١٣	١٠	١٢	٨	١٧	١٢	١٦	١٠	١٤	٧	الاثنين
الثلاثاء	١٧	٢٠	١٥	٢٠	١٤	١٧	١٢	١٥	١٨	١٩	١٧	١٧	١٦	١٤	١٤	١١	١٣	٩	١٨	١٣	١٧	١١	١٥	٨	الثلاثاء
الأربعاء	١٨	٢١	١٦	٢١	١٥	١٨	١٣	١٦	١٩	٢٠	١٨	١٨	١٧	١٥	١٥	١٢	١٤	١٠	١٩	١٤	١٨	١٢	١٦	٩	الأربعاء
الخميس	١٩	٢٢	١٧	٢٢	١٦	١٩	١٤	١٧	٢٠	٢١	١٩	١٩	١٨	١٦	١٦	١٣	١٥	١١	٢٠	١٥	١٩	١٣	١٧	١٠	الخميس
الجمعة	٢٠	٢٣	١٨	٢٣	١٧	٢٠	١٥	١٨	٢١	٢٢	٢٠	٢٠	١٩	١٧	١٧	١٤	١٦	١٢	٢١	١٦	٢٠	١٤	١٨	١١	الجمعة
السبت	٢١	٢٤	١٩	٢٤	١٨	٢١	١٦	١٩	٢٢	٢٣	٢١	٢١	٢٠	١٨	١٨	١٥	١٧	١٣	٢٢	١٧	٢١	١٥	١٩	١٢	السبت
الأحد	٢٢	٢٥	٢٠	٢٥	١٩	٢٢	١٧	٢٠	٢٣	٢٤	٢٢	٢٢	٢١	١٩	١٩	١٦	١٨	١٤	٢٣	١٨	٢٢	١٦	٢٠	١٣	الأحد
الاثنين	٢٣	٢٦	٢١	٢٦	٢٠	٢٣	١٨	٢١	٢٤	٢٥	٢٣	٢٣	٢٢	٢٠	٢٠	١٧	١٩	١٥	٢٤	١٩	٢٣	١٧	٢١	١٤	الاثنين
الثلاثاء	٢٤	٢٧	٢٢	٢٧	٢١	٢٤	١٩	٢٢	٢٥	٢٦	٢٤	٢٤	٢٣	٢١	٢١	١٨	٢٠	١٦	٢٥	٢٠	٢٤	١٨	٢٢	١٥	الثلاثاء
الأربعاء	٢٥	٢٨	٢٣	٢٨	٢٢	٢٥	٢٠	٢٣	٢٦	٢٧	٢٥	٢٥	٢٤	٢٢	٢٢	١٩	٢١	١٧	٢٦	٢١	٢٥	١٩	٢٣	١٦	الأربعاء
الخميس	٢٦	١	٢٤	٢٩	٢٣	٢٦	٢١	٢٤	٢٧	٢٨	٢٦	٢٦	٢٥	٢٣	٢٣	٢٠	٢٢	١٨	٢٧	٢٢	٢٦	٢٠	٢٤	١٧	الخميس
الجمعة	٢٧	٢	٢٥	٣٠	٢٤	٢٧	٢٢	٢٥	٢٨	٢٩	٢٧	٢٧	٢٦	٢٤	٢٤	٢١	٢٣	١٩	٢٨	٢٣	٢٧	٢١	٢٥	١٨	الجمعة
السبت	٢٨	٣	٢٦	٣١	٢٥	٢٨	٢٣	٢٦	٢٩	٣٠	٢٨	٢٨	٢٧	٢٥	٢٥	٢٢	٢٤	٢٠	٢٩	٢٤	٢٨	٢٢	٢٦	١٩	السبت
الأحد	٢٩	٤	٢٧	١	٢٦	٢٩	٢٤	٢٧			٢٩	٢٩	٢٨	٢٦	٢٦	٢٣	٢٥	٢١			٢٩	٢٣	٢٧	٢٠	الأحد
الاثنين	٣٠	٥	٢٨	٢	٢٧	٣٠	٢٥	٢٨					٢٩	٢٧	٢٧	٢٤	٢٦	٢٢			٣٠	٢٤	٢٨	٢١	الاثنين
الثلاثاء			٢٩	٣	٢٨	١	٢٦	٢٩					٣٠	٢٨	٢٨	٢٥	٢٧	٢٣					٢٩	٢٢	الثلاثاء
الأربعاء					٢٩	٢	٢٧	٣٠							٢٩	٢٦	٢٨	٢٤					٣٠	٢٣	الأربعاء
الخميس					٣٠	٣	٢٨	٣١									٢٩	٢٥							الخميس
الجمعة							٢٩	١									٣٠	٢٦							الجمعة
	محرم		صفر		ربيع الأول		ربيع الثاني		جمادى الأولى		جمادى الثانية		رجب		شعبان		رمضان		شوال		ذو القعدة		ذو الحجة		
	فبراير – مارس		مارس – أبريل		أبريل – مايو		مايو – يونيه		يونيه		يوليه		يوليه – أغسطس		اغسطس – سبتمبر		سبتمبر – أكتوبر		أكتوبر – نوفمبر		نوفمبر – ديسمبر		ديسمبر – يناير		

بتصريح خاص من تقويم «أم القرى»



مع تحيات قافلة الزيت

بسم الله الرحمن الرحيم

قافلة الزيت

العدد الأول المجلد الحادي والعشرون

تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الأمريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة - توزع مجاناً

العنوان: صندوق البريد رقم ١٣٨٩ - الظهران - المملكة العربية السعودية

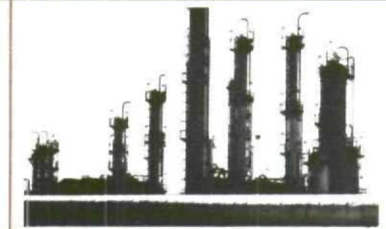
محتويات العدد



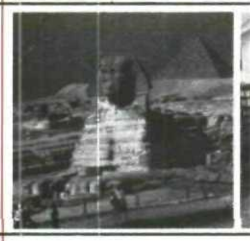
بحوث أدبية



لقاء مع



بحوث علمية



إستطلاعات مصورة

○ كل ماينشر في "قافلة الزيت" يعبّر عن آراء الكتّاب أنفسهم، ولا يعبّر بالضرورة عن رأي "القافلة" أو عن اتجاهها.
○ يجوز إعادة نشر المواضيع التي تظهر في "القافلة" دون إذن مسبق على أن تُذكر كمصدر.
○ لا تقبل "القافلة" إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها، وهي تؤثر تلقي النسخة الأصلية مطبوعة على الآلة الكاتبة، ومنقحة.
○ يتم تنسيق المواضيع في كل عدد وفقاً لمقتضيات فنية لا تتعلق بمكانة الكاتب أو أهمية الموضوع.
○ تنقيح المقالات على النحو الذي تظهر فيه يجري عادة وفق ظروف يقتضيها نهج "القافلة".

المدير العام: فيصل محمد البسام المدير المسؤول: عبد الله صالح جمعة
رئيس التحرير: منصور مدني المحرر المساعد: عوني ابو كشك

AL-MUTAWA PRESS CO., DAMMAM, SAUDI ARABIA - شركة مطابع المطوع - الدمام - المملكة العربية السعودية



التعليق على صورة الغلاف

أحد الأبهاء التي تضمها مكتبة الاسكوريال العالمية في مدريد ، وقد زين سقفه بطائفة كبيرة من الصور والرسوم والنقوش البديعة ، وغصت جنباته بذخائر الكتب العربية النادرة .
راجع مقال « مكتبة الأسكوريال »
تصوير : خليل أبو النصر

لم تكن هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام طلبا للدعة واخلادا للراحة والاستقرار أو تنصلا من المسؤولية الكبرى ، وانما كانت قفزة بالعقيدة الاسلامية حتى لا تهان وحتى يهيأ لها المكان اللائق لتظهر وتنتشر ، وتوطيدا لأسسها ، وتثبيتا لأركانها ، وصونا لأهلها من عوامل العسف والصلف ، وبداية للفتح والنصر المبين . لقد كانت الهجرة عنوانا لانتصار الحق واستمرار السيرة ، وايحاء بأن رسالة السماء لا بد لها من الظهور والبقاء والخلود لتأخذ طريقها نحو ارساء العقيـــدة في الأفئدة والأفكار وهيمنتها رغم الأعاصير التي تثيرها الوثنية وعبدة الأصنام .

لقد فرقت الهجرة بين عهدين : عهد الوثنية وتعلق القلوب بغير الله ، وعهد الحق والايمان ، وميزت بين حياتين : حياة التخبط والظلم والتعذيب وحياة الأمن والعدل والأخوة الصادقة في العقيدة والمبدأ . كما حققت عزا للاسلام وانتعاشا للدعوة الاسلامية وخطت بالرسالة النبوية خطوات خيرة موفقة نحو الأمام كانت بداية عهد جديد ، وتخطيطا لمدى أبعد وأرحب ، ونقطة انطلاق الى حياة عامرة بالايمان والعمل الجاد انتصرت فيها العقيدة ، وانتصر فيها الاسلام ، وانتصر فيها جند الرحمن ، وارتفعت راية الحق ، وانخفضت راية الباطل ، وكانت نهاية لطغيان الوثنية وعسفها وجبروتها ، وقضاء على سلطان البغي والعدوان . وقد وقى الله رسوله وحماه ونجاه من كيد الكائدين ومؤامرتهم وبطشهم . فيقول الله سبحانه وتعالى : **« ألا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجـــه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » .**

كانت هجرة نبي الاسلام من مكة المكرمة الى المدينة المنورة بعد أن دام الصراع بين الحق والباطل ثلاث عشرة سنة . وبعد أن تجمع أنصار الباطل وعبدة الأصنام على المؤامرة الدنيئة الفاشلة باغتيال صاحب الرسالة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله بقدرته وحكمته أبطل كل ما دبروا وقضى على كيدهم ومكرهم وما بيتوا من سوء وشر . وأمر رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام بالهجرة من بلده مكة ، وسهل ويسر له سبل هذه الهجرة الظافرة ، فكانت ايذانا ببزوغ فجر الاسلام وانتشاره في أرجاء المعمورة ، وبداية لبناء دولة تقوم على العدل والتوحيد وتوجه القلوب الى عبادة الله والتعلق به وحده والقضاء على الدجل والوثنية وعبادة المخلوق ، فكانت هجرة فتح ونصر لا هجرة هزيمة وفرار .

وما كادت قدما رسول الهداية والخير تطأ تراب المدينة المنورة حتى أخذت العقيدة الاسلامية تنتشر وتقوى والنور الالهي يشع ، والناس يتدفقون من كل حدب وصوب لاعتناق الدين الذي جاء من عند الله على يدي محمد الرسول ، وسارت الركبان يمنة ويسرة مبشرة بدين الاسلام دين الحق والأخوة والمحبة : **« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكـــ فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفر من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .** وحل الاسلام وتعاليمه الطاهرة محل التقاليد والتنافس القبلي ، وبعد أن كانوا يتنافسون في سفك الدماء صاروا يتنافسون في فعل الخيرات وعمل القربات . وهكذا جعل منهم النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أمة عزيزة مجاهدة في سبيل الله وفي سبيل مبادىء الاسلام الخالدة للدفاع عن الحق ومقابلة العدوان بمثله ، وبدأ يكافح ويجاهد ويصد الأعداء عن عقيدة الاسلام وعن ركيزته الأولى ، وغزا غزوة بدر الكبرى التي أظهر الله فيها الاسلام وأعزه وأعز أهله .

وصارت الغزوات تتوالى حتى خبت نار الحقد والطغيان وانتشر الاسلام وقويت شوكته ، وصارت الغلبة لأهله ومعتنقيه ، ولأعدائهم الخيبة والذلة والهوان . وواصل الرسول الكريم جهاده حتى صار الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، وارتفعت راية الاسلام عالية ، وأضحت له قوة ضاربة مهابة ، وتأسى صحابة الرسول ، عليه السلام ، به وبجهاده وصبره وبلائه وضربوا أروع الأمثلة في التضحية والفداء نصرة لشريعة الله واعزازا لدينه فهجروا الأوطان والديار ، وزهدوا في الأموال والأولاد ، واسترخصوا المهج والنفوس في سبيل الله وفي سبيل دينهم واسلامهم



واستعذبوا البلاء والمكاره ابتغاء مرضاة الله واستجابة لأمره بأن يضحوا ويهاجروا من أجل الله ومن أجل العقيدة والايمان ، فلبوا طائعين مرددين قوله سبحانه وتعالى : « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة . ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيما » .

وهكذا أثبت الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين حبهم لله وتفانيهم في سبيل الله ، فهجروا اللذائذ وتحملوا الشدائد والمتاعب وصبروا على المكاره وأنواع الأذى حتى نصر الله دينه وأعز شريعته ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا وانتصرت شريعة الله وانتكست راية الشرك والضلال .

لقد سبق الهجرة الى المدينة المنورة هجرتان الى الحبشة لبعض صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك حين اشتد الأذى والعنت عليهم ، وبلغ منهم التنكيل والتعذيب مبلغه . هنالك أشار عليهم رسول الهدى عليه الصلاة والسلام أن يهاجروا من مكة حتى يجعل الله لهم من أمرهم مخرجا ، ونصحهم أن يذهبوا الى بلاد الحبشة وقال لهم : « لو خرجتم الى أرض الحبشة فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » ، فهاجر رجال ونساء من صحابة الرسول الكريم مخافة الفتنة وفرارا الى ربهم بدينهم وهجروا الوطن في سبيل العقيدة وفي سبيل الاسلام ، لأن حب الله وحب رسوله قد خامر قلوبهم وامتزج بدمائهم فهو أغلى من حب الوطن والمال ، والعقيدة أثمن وأقدس من كل شيء في هذه الحياة ، فهانت عليهم الدنيا وهان عليهم فراق الأولاد والأزواج ، وعلموا من مدرسة الرسول المربي والمصلح العظيم أن المسلم لا ينبغي له أن يبقى في هذه الأرض مهانا ذليلا لا قدرة له على أن يجهر بدينه ومعتقده ، وان عليه اذا ضاق به مكان وهين وامتهن أن يشخص الى مكان آخر وأن يهجر ذلك المكان الذي سيم فيه خسفا وهوانا عله يجد في أرض الله الرحبة الواسعة مكانا أفضل وعزة له ولعقيدته واسلامه مهما ينله من متاعب ومصاعب في سبيل تلك الهجرة وذاك الفراق ، لأن فيهما تحقيقا لمبدأ سام ومطلبا تهون أمامه العقبات وتتلاشى وزلفى تقرب الى الله ورسوله : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

لقد حاولت العناصر الشريرة صد هؤلاء المهاجرين وارجاعهم الى حظيرتهم وسلطانهم ، سلطان البطش والبغي ، وعبادة الشجر والحجر ، وبذلت جهودا لدى ملك الحبشة للتشكيك في معتقدهم وايمانهم ، ولكنها كلها باءت بالفشل والخسران ، وعاش هؤلاء المهاجرون الصابرون الأخيار عيشة مطمئنة آمنة في رحاب النجاشي وفي جواره حتى أعز الله الاسلام بهجرة الرسول العظيم للمدينة المنورة ، فلحق به هؤلاء وانضموا تحت رايته ، وحقق الله للمسلمين الغلبة والتمكين وصدق الله حيث يقول : « ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور . أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » .

ومن درس الهجرة النبوية ودوافعها ومراميها وآفاقها الرحبة بتبصر وتجرد ووعي وادراك ، عرف أن الهجرة ليست الا صورا حية من صور الجهاد والبطولة والتضحية والفداء في سبيل الله تجلى فيها صدق المؤمنين واخلاصهم لدينهم ورسالة قائدهم ومعلمهم ، وبذلوا من أجل ذلك كل غال ونفيس ، وباعوا أنفسهم لله وابتغاء مرضاة الله مضحين براحتهم واستقرارهم وأولادهم وأهليهم باذلين الروح والمال لاعزاز الدين واظهاره رغم كراهة المشركين وتمردهم وسلطانهم ، وما كانت هجرة هؤلاء المؤمنين الصادقين طمعا في مادة أو رغبة في شهرة أو حصولا على لذة ومتعة .

هذه هي أهداف الهجرة وهذه هي مراميها فما أصدقها من هجرة ، وما أسماها من عقيدة رخصت في سبيلها النفوس والأرواح ، فيجدر بالمسلم أن يتخذ منها عظة وعبرة ونبراسا يضيء له مسالك الحياة ■

سليمان بن عبدالعزيز آل سليمان – الدمام



مكتبة الأسكوريال

ذخائرها الأندلسية والمغربية

ن منْ صُروح العالَم الأثريّة، يمتاز كلٌّ منهما بضخامة
رفائق هندستِه وخططِه وروعةِ ذخائرِه الفنيّة،
ة مكتبةِ، هما قصر الفاتيكان برومة، وقصر
رِيال على مقربةٍ من مدريد .

يزة خاصّة تمتاز بها كلٌّ من مكتبتَي الفاتيكان
ورِيال، هي أنّ كلاًّ منهما تحتوي على مجموعةٍ كبيرة
ائس المخطوطات .

ن بهذا الحديث قصرَ الأسكوريال ومكتبته، وهو
ث التاريخ، أحدث الصرحين .

بقلم الاستاذ محمد عبدالله عنان

جموعة من نفائس المخطوطات العربية النادرة التي
حتضنها رفوف مكتبة الأسكوريال العالمية .. من
ذه المخطوطات ، مصحف كريم مكتوب بخط
ربي بديع مذهب ، وكتاب السلوانات في مسامرة
خلفاء والسادات ، ويحتوي على صور مذهبة تمثل
شاهد تاريخية لكسرى وسابور والمأمون وقيصر
فرس والمسلمين .. ثم كتاب منافع الحيوان ،
يتناول خواص الحيوانات والطيور .

انّ قصر الأسكوريال « El - Escorial » يقع على المنحدر الجنوبي لجبال وادي الرملة « Guadasrama » في الضاحية المسماة باسمه ، على قيد خمسين كيلومترا من مدريد ، ويعتبر الأسكوريال من أضخم وأفخم الصروح الملوكية . ولانشاء هذا القصر العظيم قصة خلاصتها أن فيليب الثاني ملك اسبانيا ، حينما قيض له النصر على الفرنسيين في موقعة « سان كنتن » في أغسطس سنة ١٥٥٧م ، نذر أن يقيم صرحا عظيما ، يحتوي على دير وكنيسة فخمة ، ثم تطورت الفكرة الى انشاء هذا الصرح الملكي الباذخ ، وكان البدء في بنائه في أبريل سنة ١٥٦٣م ، تحت اشراف مهندس الملك « خوان باوتستادي توليدو » ، ثم لما توفي سنة ١٥٦٧م ، استمر العمل تحت اشراف تلميذه « خوان هيريرا » . واستغرق بناؤه اثنين وعشرين عاما ، وتم في سنة ١٥٨٤م . واستغرقت أعمال الزخرفة والتأثيث عشرة أعوام أخرى ، واستمرت حتى قبيل وفاة فيليب الثاني بثلاثة أعوام فقط ، ويشغل صرح الأسكوريال مسطحا ضخما يبلغ نحو مائة وثلاثين ألف متر مربع ، ويكفي لتقدير ضخامة هذا الصرح العظيم أن نعلم أنه يحتوي على اثني عشر ألف باب ونافذة ، وهو مبني كله بالحجر الصلد ، بما في ذلك سقوفه وممراته . وهو بأوضاعه الحاضرة يحتوي على قصر ملكي وكنيسة بها دير ومكتبة ، ومعهد ديني ومدفن ملكي يضم توابيت الملوك الاسبان ، منذ الامبراطور كارلوس كنتو (شاركان) ، وولده فيليب الثاني ، حتى فرناندو السابع (أوائل القرن التاسع عشر) . ويقع القصر الى يسار الكنيسة ، وهو من أفخم القصور الملكية ، تغص أبهاؤه بالصور والبسط والتحف النادرة من صنع أقطاب الفن في القرن السادس عشر ، وأشد ما يلفت النظر من محتوياته ، غرفة منشئه فيليب الثاني التي توفي فيها .

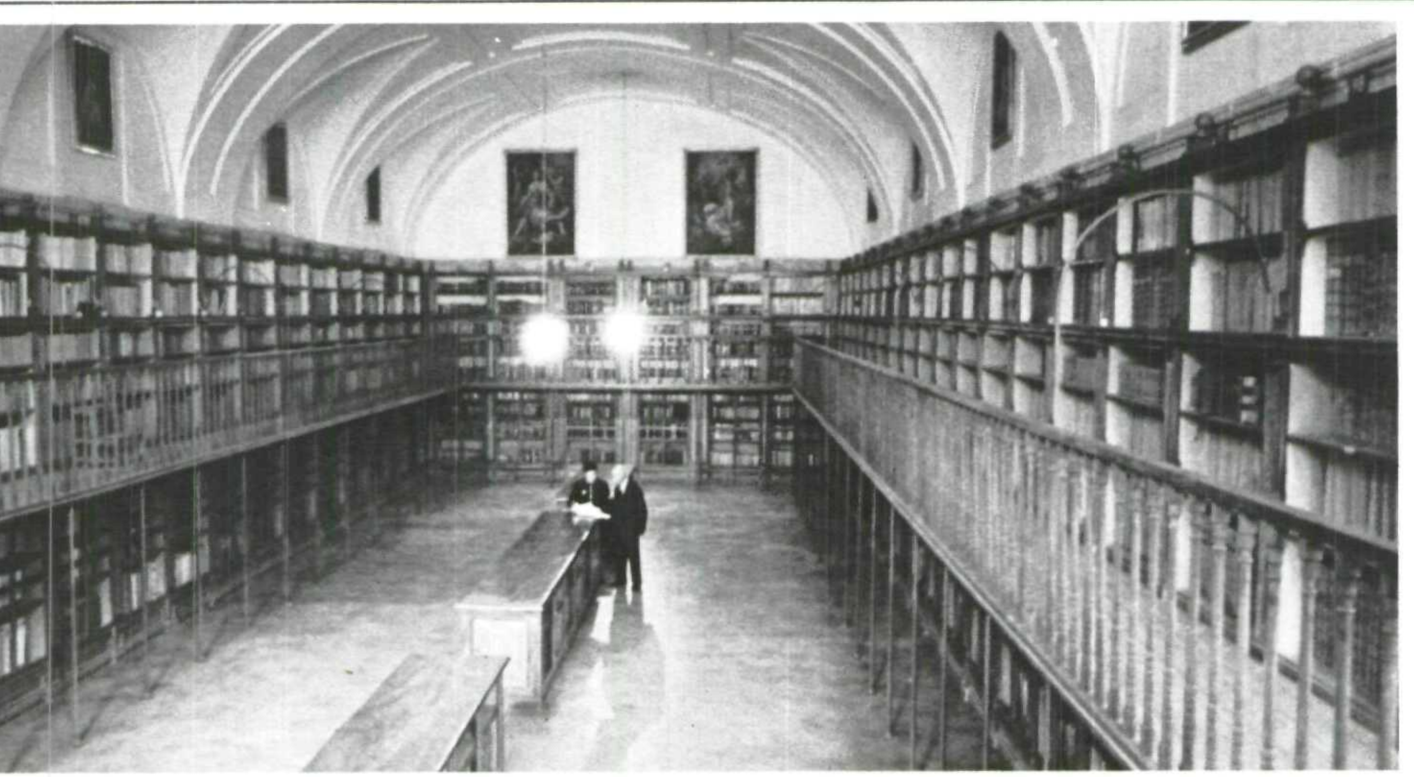
ونكتفي بهذه التقدمة الموجزة لصرح الأسكوريال وأجزائه المختلفة ، لنعطف بعد ذلك على جناحه الأيمن الذي يضم مكتبته الشهيرة وهي أهم مانعنى به في هذا الحديث .

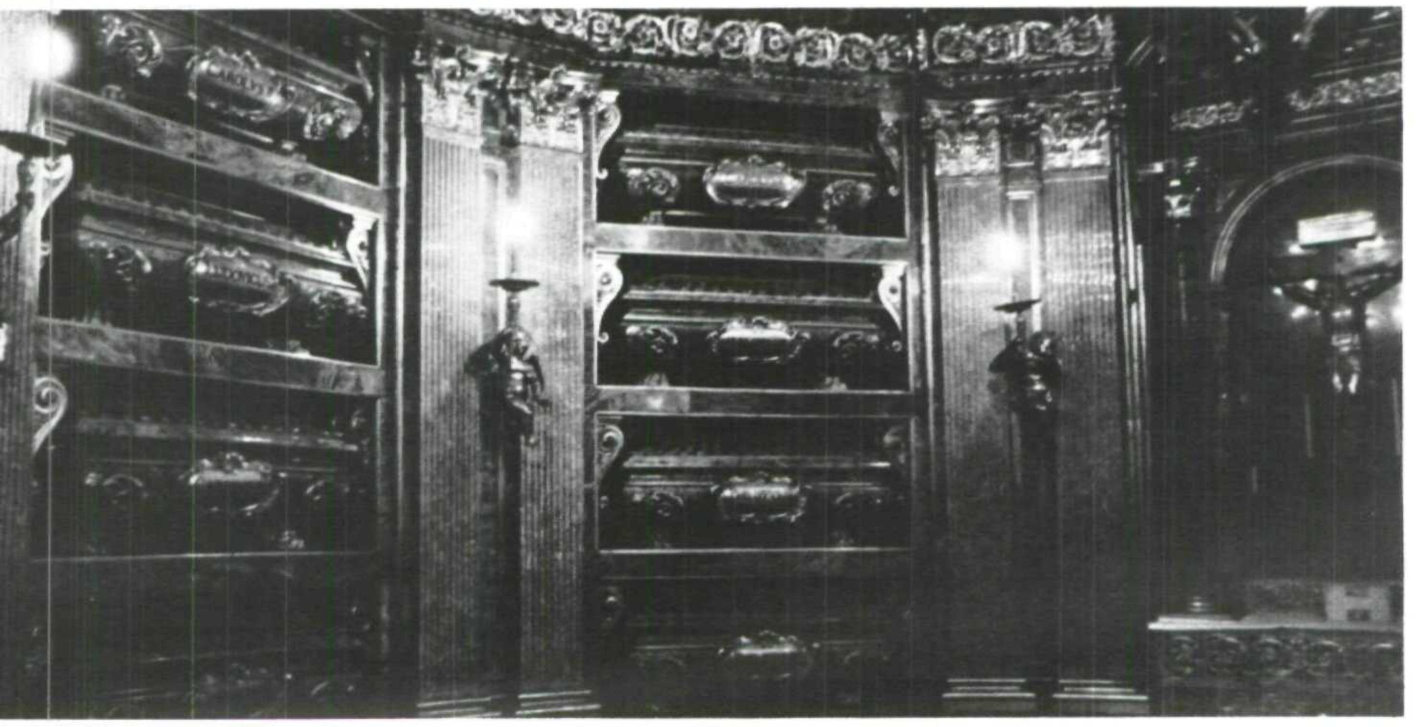
* * *

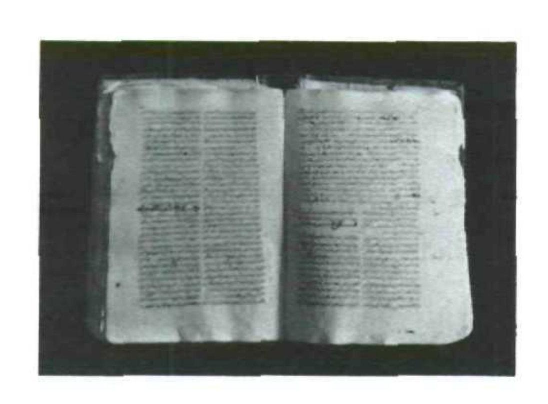
انّ مكتبة الأسكوريال لها تاريخ يرجع الى تاريخ القصر ذاته ، ومنشيء الأسكوريال ، وهو فيليب الثاني ، هو نفسه الذي فكر في انشائها ، وقد رأى أن يكون موضعها داخل الدير الذي وضعت خطة انشائه ، بعيدا عن ضجيج البلاط ، وكان يعقد يومئذ في مدريد ، العاصمة الاسبانية الجديدة . ويقع الجناح الذي يضم المكتبة فوق المدخل الرئيسي للاسكوريال ، والى جانبها يقع المعهد الديني الذي يديره الآباء الأوغسطينيون ، وهم الذين يشرفون على المكتبة . وتضم المكتبة بهوا شاسعا فخما ، يبلغ طوله نحو خمسين مترا ، وعرضه اثني عشر مترا . وقد بني سقفه بالحنايا المعقودة ، وزين بطائفة كبيرة من الصور التي رسمت بريش عدة من أقطاب الفن في القرن السادس عشر ، وتعرض اليوم فيه طائفة من المخطوطات النادرة التي تحتويها المكتبة ، ومنها أناجيل مذهبة ترجع الى القرنين العاشر والحادي عشر ، ونسخة قشتالية من كتاب الفونسو العالم في الفلك (القرن الثالث عشر) ، ونسخة من ديوان الشاعر الروماني « فيرجيل » ، ترجع الى القرن الرابع عشر ، ومنها مصحف ملوكي كريم يرجع الى القرن الخامس عشر ، ومخطوطات عربية مصورة ، سوف نعود الى التحدث عنها .

وتضم مكتبة الاسكوريال نحو ستين ألف مجلد ، منها خمسون ألفا من الكتب المطبوعة . وهو رقم متواضع بالنسبة لما تحتويه المكتبات الكبرى ، ولا سيما اذا ذكرنا أن مكتبة الفاتيكان ، قرينة مكتبة الاسكوريال ، تحتوي على ثلاثمائة

أحد الأجنحة الفسيحة التابعة لمكتبة الأسكوريال والتي تودع فيها ذخائر الكتب والمخطوطات النفيسة ■ بعض الدواليب الثمينة الزاخرة بذخائر الكتب والمخطوطات الن







وستة وخمسين ألف مجلد ، ومائة وعشرين ألف وثيقة مختلفة ، بيد أن أنفس ما في مكتبة ، الاسكوريال ، هو ذخائرها المخطوطة ، وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مجلد من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية والقشتالية ، وغيرها ، ويبلغ ما تحتويه من المخطوطات العربية نحو ألف وتسعمائة وخمسين مجلدا ، معظمها مخطوطات أندلسية ومغربية وهي أكبر مجموعة من نوعها في أية مكتبة أوروبية.

كما تضم مكتبة الاسكوريال مجموعة كبيرة من المَنمنَمات والنقود من مختلف العصور وأرشيفا موسيقيا كبيرا والذي يهمنا قبل كل شيء من محتويات مكتبة الأسكوريال ، هو مجموعة المخطوطات العربية ، ولوجود هذه المجموعة في الأسكوريال ، قصة مشجية ، ويجب أن نعرف أولا ، أن مكتبة الاسكوريال هي في الأصل المكتبة الملكية ، التي أنشئت في عهد الملك فيليب الثاني . وكانت في بدايتها صغيرة ، تضم مجموعة من الكتب والمخطوطات النادرة التي كان يهديها اليها بعض أكابر النبلاء ، أو يشتريها سفراء الملك في مختلف الأقطار . أما مجموعة الكتب العربية فقد بدأت في سنة ١٥٧١م بمجموعة قدرها احدى وستون مخطوطة من كتب الطب العربية جمعت بطريق الشراء من أنحاء مختلفة ، ثم عهد الملك بعد ذلك الى بعض الخبراء والعارفين من الموريسكيين (العرب المتنصرين) بالبحث عن المخطوطات العربية ، ولا سيما كتب الطب والفلك والرياضة ، فتجول مندوبو الملك في القواعد الأندلسية السابقة ، مثل غرناطة وأشبيلية وجيان ، وطليطلة ، وبلنسية ومرسيه وغيرها حيث كانت ما تزال ثمة جاليات موريسكية كبيرة ، تحتفظ بكثير من المخطوطات العربية تراث الآباء والأجداد ، واستطاعوا أن يجمعوا منها مقادير كبيرة . هذا ، ومن جهة أخرى ، فقد كان سفراء الملك في مختلف الأقطار ينقبون عن المخطوطات العربية ويشترونها برسم المكتبة الملكية.

وكان يحفزهم الى ذلك مَثَلُ البابا اسكندر السادس (اسكندر بورجيا) الذي استطاع أن يقتني لمكتبة (الفاتيكان) مجموعة كبيرة من الكتب العربية ، ما تزال تحتفظ بها حتى يومنا باسم المجموعة البورجوانية – Borgiani » . ولما توفي فيليب الثاني في سنة ١٥٩٦م ، كانت مكتبة الاسكوريال تضم مجموعة كبيرة من المخطوطات العربية ، تقدر ببضعة آلاف .

ثم وقع حادث ترتب عليه أن زادت المجموعة العربية في الاسكوريال زيادة كبيرة . وذلك حينما أسرت السفن الاسبانية في المياه المغربية سفينة كبيرة ، كانت تحمل مكتبة سلطان المغرب الأديب العالم مولاي زيدان الحسني وذخائره . وذلك في سنة ١٦١٤م . وكان مولاي زيدان قد غادر مراكش تحت ضغط الثورة التي اضطرمت ضده ، ولجأ مع حاشيته الى ثغر آسيوي ، واستأجر سفينة فرنسية لنقل مكتبته النفيسة وذلك نظير أجر قدره ثلاثة آلاف دوقية ، ولما وصلت السفينة بحمولتها الى أغادير ، ولم يستطع السلطان أداء الأجر المطلوب ، سارت السفينة بحمولتها شمالا ، وعندئذ فاجأتها ثلاث من السفن الاسبانية واستولت عليها ، وحملت المكتبة المغربية النفيسة الى مكتبة الاسكوريال الملكية ، وقوامها نحو أربعة آلاف مجلد من كتب العلوم والآداب ومختلف الفنون ، وأعلن فيليب الثالث ملك اسبانيا يومئذ ورجال بلاطه ، أن هذه المكتبة لن ترد الى السلطان الا اذا أفرج عن سائر الأسرى النصارى المحجوزين بالمغرب .

وهكذا ضوعفت المجموعة العربية في الاسكوريال . وبلغت في أوائل القرن السابع عشر زهاء ثمانية آلاف مجلد وكانت أغنى وأنفس مجموعة من نوعها في اسبانيا ، وسائر المكتبات الأوروبية . ولكن محنة جديدة أصابت هذه البقية الباقية من تراث الأندلس الفكري والمغربي . ففي سنة ١٦٧١م شبت النار بقصر الاسكوريال ، واستمرت تضطرم نحو خمسة عشر يوما ، تداعت خلالها أجنحة عديدة من القصر وهلك كثير من المخطوطات اللاتينية واليونانية ، وهلكت معظم المخطوطات العربية ، ولم ينقذ منها سوى ألفين هي التي تثوي اليوم في أقبية مكتبة الاسكوريال .

وبذل الملوك المغاربة أكثر من محاولة ، لاسترداد المكتبة الزيدانية أو ما تبقى منها . ففي سنة ١٦٥١م بعث « مولاي محمد » سلطان مراكش ، وولد « مولاي زيدان » ، عن طريق الراهب « بيدرو دي القنطرة » ، يطلب أن ترد اليه مكتبة أبيه المنهوبة في عرض البحر ، فرفض فيليب الرابع ملك اسبانيا تحقيق هذه الرغبة . وفي سنة ١٦٩٠م أرسل مولاي اسماعيل عاهل المغرب ، سفيره الوزير « محمد بن عبد الوهاب الغساني » الى « كرلوس » الثاني ملك اسبانيا ليقوم لديه بمهمة مزدوجة هي الاتفاق على تبادل الأسرى ، والعمل على استرداد الكتب العربية . وكان حريق الاسكوريال قد وقع قبل مقدم الوزير الى اسبانيا بنحو عشرين عاما ، فزعم للوزير أن الحريق قد أتى على سائر الكتب العربية ، وأخفوا عنه حقيقة ما تبقى منها ، فاقتنع الوزير بما ذكره الاسبان ، واكتفى بالاتفاق على تحرير الأسرى .

ولعَبْد ذلك بنحو ثمانين عاما ، بعث « مولاي محمد بن عبد الله » ملك المغرب ، في سنة ١٧٦٦م كاتبه « أحمد بن الغزال المهدي » بسفارة مماثلة الى كرلوس الثالث ملك اسبانيا تدور حول تحرير الاسرى واسترداد الكتب العربية ، وقد استطاع السفير المغربي أن يصل الى الاتفاق مع الاسبان على مبادلة الاسرى وافتدائهم ، وأن يحصل أيضا على مقادير قليلة من الكتب العربية ، جمعت له من مدريد وغرناطة . ولكن الاسبان أخفوا عنه كما أخفوا عن سلفه الوزير الغساني حقيقة الأمر فيما يتعلق بمجموعة الاسكوريال .

* * *

جانب من قاعة المطالعة التي يقصدها الباحثون ورجال الفكر من مختلف الأنحاء ■ احدى وا.

وقد لبثت هذه المجموعة المهمة من المخطوطات الأندلسية والمغربية في أقبية الاسكوريال عصورا وهي محجوبة عن أعين الباحثين ، وكانت الحكومة الاسبانية تحرص على اخفائها عن نظر كل باحث ومتطلع ، ولم توضع لها خلال هذه العصور أية فهارس تفصيلية ، وان كانت قد وضعت من آن لآخر بعض قوائم موجزة لبعض مجموعات منها ، وأخيرا قررت الحكومة الاسبانية أن تعمل على دراسة المجموعة العربية والتعريف بها ، وكان ذلك في أواسط القرن الثامن عشر . فندبت لهذه المهمة حبرا شرقيا ، يجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية هو العلامة « ميخائيل الغزيري » ، وهو المعروف في المغرب باسم (Casiri)

وكان الغزيري رجل المهمة ، فهو سوري درس العربية ، ثم درس اللغات السامية واللاتينية والاسبانية ، وقضى شبابه في رومة مركز الدراسات الشرقية يومئذ الى جانب مكتبة الفاتيكان ، التي كانت تغص بالمخطوطات العربية والشرقية . فلبى دعوة الحكومة الاسبانية ، وعين في سنة ١٧٤٩ مديرا لمكتبة الاسكوريال ، وأقام في قصر الاسكوريال أعواما يستعرض الآثار العربية ويدرسها ويحققها . ثم بدأ يضع عنها الفهرس الجامع الذي عهد اليه بوضعه . وفي سنة ١٧٦٠م ظهر الجزء الأول من هذا الفهرس باللاتينية بعنوان :

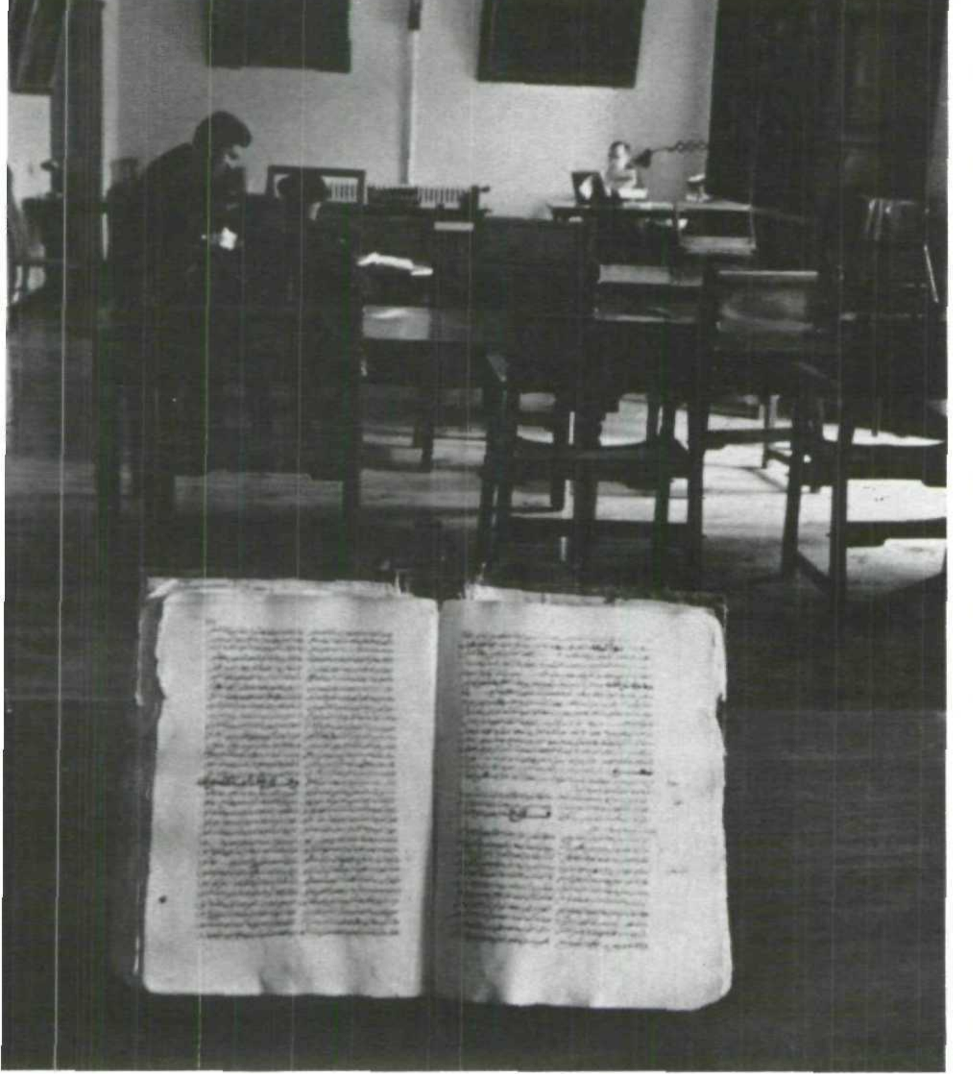
Bibliotheca Arabico-Hispana Escurialensis

« المكتبة العربية الاسبانية في الاسكوريال » . ولم يظهر الجزء الثاني الا بعد ذلك بعشرة أعوام في سنة ١٧٧٠ ، وقد صدر الغزيري معجمه بمقدمة طويلة تحدث فيها عن قيمة المخطوطات العربية وأهميتها ، وقسم هذه الآثار الى فنون ، وبدأ بكتب اللغة وعلومها ، ثم الشعر وأبوابه وعلومه. ثم الأخلاق والسياسة ، ثم الطب والتاريخ الطبيعي ، ثم الرياضة والهندسة والفلك ، ثم كتب اللغة وعلوم الدين والقرآن ، ثم الآثار النصرانية .

وهذه هي محتويات الجزء الأول . ويحتوي الجزء الثاني على كتب الجغرافيا والتاريخ وتنتهي أرقام الفهرس كله بالرقم ١٨٥١ . ويختتم الغزيري معجمه بثبت جامع لاسماء المؤلفين وأرقام مؤلفاتهم .

ولم يقف الغزيري في معجمه عند ذكر العناوين والأسماء والمحتويات ، ولكنه يعمد في فرص كثيرة الى التحقيق والشرح والتعليق ، فيدرس حقيقة المخطوط وشخصية مؤلفه ، ويعرض خلال معجمه كثيرا من النصوص والتراجم وينقل وثائق برمتها . ومعجمه مجهود علمي شاسع ، ينم عن غزارة علمه ، رغم ما يتخلله في مواطن كثيرة من الخطأ والتحريف . وبالرغم من أن مجهود الغزيري كان هدفا لحملات بعض العلماء ، الا أن معجمه يبقى مع ذلك مرجعا نفيسا ، وعرضا بديعا للآثار العربية في مكتبة الاسكوريال .

وجاء بعد الغزيري ، المستشرق الفرنسي « هارتفج ديرنبور » فوضع فهرسا جديدا لمجموعة



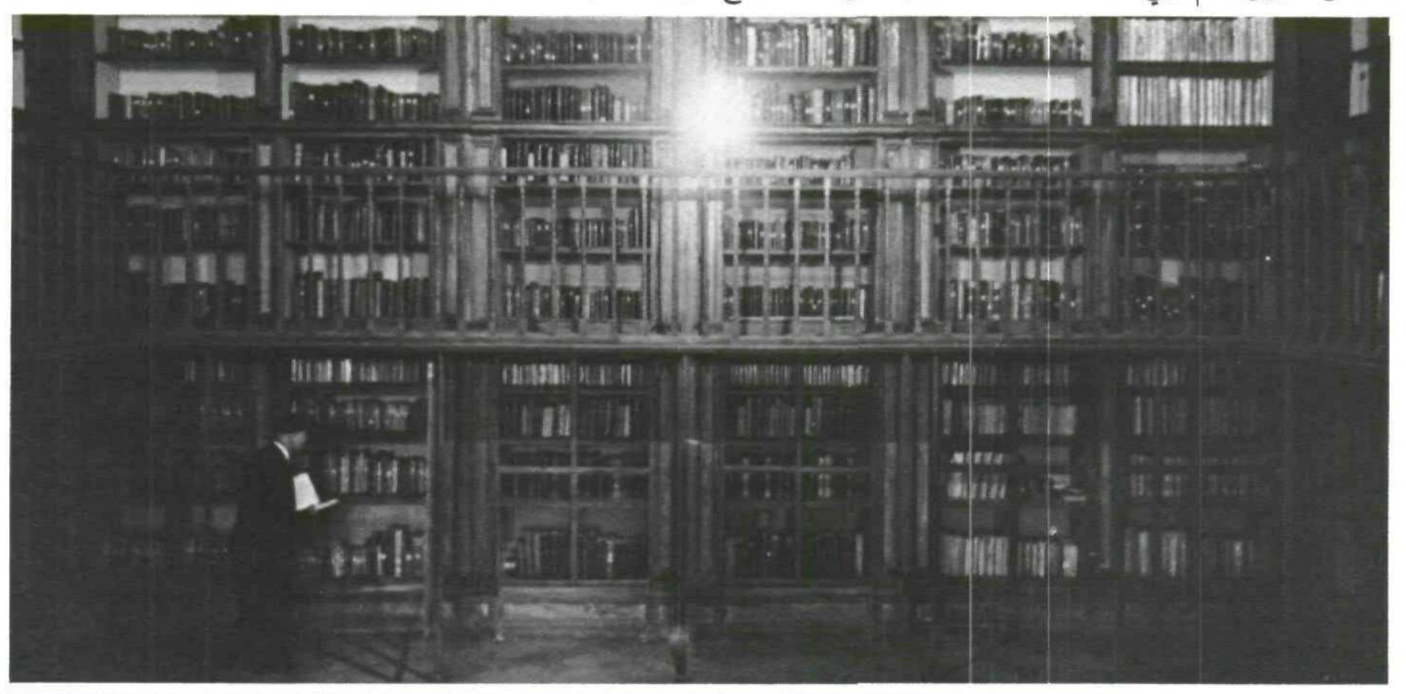


ريال وتمتاز بدقة تنضيدها ونسق تنظيمها ■ منظر عام لصرح الأسكوريال الأثري في اسبانيا، ويمتاز بضخامة حجمه وفائق هندسته وروعة ذخائره الفنية ونفاسة مكتبته.

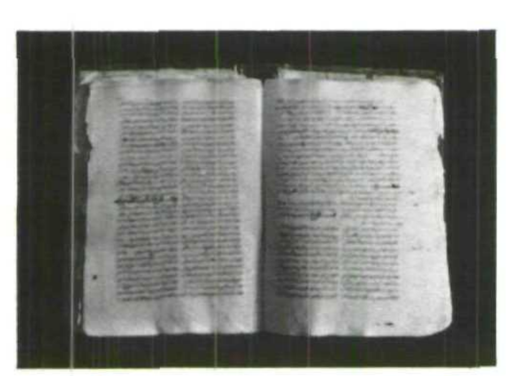
الاسكوريال العربية ، ظهر الجزء الأول منه في سنة ١٨٨٤ ، وصدر الجزء الثاني منه سنة ١٩٠٣ وانتهى « ديرنبور » في تعداده للآثار العربية الى الرقم ١٩٥٥ ، بما يزيد على الرقم الذي انتهى اليه الغزيري بنحو مائة مخطوط عثر عليها ديرنبور في مختلف زوايا المكتبة . ثم توفي « ديرنبور » في سنة ١٩٠٥ ، وقام من بعده الأستاذ « ليفي بروفنسال » ، فأصدر الجزء الثالث من الفهرس . ثم توفي دون اتمامه . وما يزال هذا الفهرس الجديد لمجموعة الاسكوريال العربية تنقصه فنون الطب والتاريخ الطبيعي والرياضة والفقه . ثم الكتب المائة التي غابت عن الغزيري .

وقد كان التنقيب في تراث الآثار العربية والتعريف بها على هذا النحو فتحا عظيما في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الحضارة الاسلامية ، فقد كان الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ، لا يعرف من هذا التاريخ سوى ما تعرضه الآثار الغربية من روايات مغرضة . وكانت مئات الحقائق تغمرها حجب التعصب والتحامل ، فجاءت وثائق الاسكوريال تبدد هذه الحجب ، وتقدم الادلة القاطعة على عظمة هذه الصفحة من التاريخ الأندلسي ، وتعرض لنا مئات الحقائق عن تفوق الحضارة والعلوم الاندلسية ، ومبلغ ما وصلت اليه من الازدهار والتقدم .

هذا ، وما تزال مكتبة الاسكوريال ومجموعتها الأندلسية المغربية ، مقصد الباحثين







اثنان من الأبراج الشاهقة التي تعلو صرح الأسكوريال الأثري في مدريد ■ تصوير : خليل أبو النصر

من سائر الأنحاء . وتودع هذه المجموعة في بهو منير شاسع ، يقع في قبو الدير ، وقد نظمت الكتب في دواليب حديثة ، ومعظمها في حالة جيدة من الصيانة، ويوجد من نوادر المخطوطات العربية المودعة بقاعة معرض المكتبة ، التي سبقت الاشارة اليها ثلاثة مجلدات ، كلها من محتويات المكتبة الزيدانية ، وتعرض في الحظيرة الزجاجية الثانية من حظائر المعرض .

أولها : مصحف كريم ، هو مصحف السلطان أحمد المنصور والد مولاي زيدان ، وهو مكتوب بخط مغربي بديع مذهب ، ويحمل تاريخ كتابه في سنة ١٠٠٨هـ (١٥٩٩م) وأنه برسم الخزانة العلية الحسنية الأمامية الأحمدية النصورية .

وثانيها : كتاب السلوانات في مسامرة الخلفاء والسادات تأليف محمد بن أبي محمد بن ظفر المتوفى سنة ٥٦٥هـ (١١٦٩م) وهو يحتوي على مجموعة من القصص والمواعظ عنوانها « سلوان المطاع في عدوان الاطماع » وقد نقلت هذه النسخة على نسخة ترجع الى سنة ٥٥٤هـ (١١٥٩م)

والكتاب مصور يحتوي على ٤٧ صورة متقنة مذهبة معظمها في نصف صفحة وبعضها يشغل صفحة كاملة ، والصور تمثل مناظر من القصص والتواريخ الواردة ، منها مناظر تاريخية تمثل كسرى ، وسابور ، والمأمون ، وقيصر ، والفرس ، والمسلمين ، وبعض مشاهير وزراء هذه العصور ، وصور عديدة أخرى . والمرجح في شأن هذا المخطوط المصور ، أنه كتب وصورت صوره في منتصف القرن السادس عشر الميلادي على يد بعض الناسخين والفنانين الموريسكيين ، ولا بد أن الفنان الذي عني برسم الصور كان عارفا بصور العصر وعاداته وملابسه . ومن هنا كانت قيمة المخطوط .

وثالثها : كتاب منافع الحيوان لمصنفه علي ابن محمد بن الدريهم الموصلي المتوفي سنة ٧٦٢هـ (١٣٦٠م) وهو يتناول خواص الحيوانات والطيور في أربعة أبواب : القول في الحيوان الأهلي ، والقول في الحيوان الوحشي ، والقول في الطائر الأهلي والبري وصفة أجناس السمك . ثم يتناول الكلام عن الزواحف والديدان والحشرات . والمخطوط مؤرخ في سنة ٧٥٧هـ (١٣٥٤م) ، وبه مجموعة كبيرة من الصور البديعة الملونة تمثل الحيوانات والطيور بدقة مثل الأسد ، والذئب ، والضبع ، والنمر ، والفهد ، والقرد ، والقطاء ، والكركي ، والطاووس والبومة ، والنسور ، وغيرها . والمرجح في شأن النسخة المصورة أيضا أنها من صنع النساخين والفنانين الموريسكيين في أواسط القرن السادس عشر.

وتوجد الى جانب هذه المخطوطات النادرة ذخائر عديدة أخرى سواء بين محتويات المكتبة الزيدانية أو المجموعة الأندلسية ، ومنها نسخ كثيرة وحيدة ، ونسخ تمتاز بقدمها أو بدقتها وضبطها ، وهو ما يسبغ على مجموعة الاسكوريال العربية ، نفاسة خاصة وقيما علمية ، لا تتمتع بها أية مجموعة أخرى ■

محمد عبد الله عنان — القاهرة



ذكريات الصبا

للشاعر طاهر زمخشري



ذكْرَيَاتُ الصّبَا بفَرْطِ الحَنينِ   حرّكَت في الضّلوعِ نَارَ الشجون
ذكّرَتْني وَرُبّ ذِكْرى أثارَتْ   في الحَنايَا لواعِجَ المَفْتُون
ذكّرَتْني أيّامَ كنتُ صَبِيّاً   أتلَهّى بِصَبْوَتي في سِنِيني
وربيعُ الحياةِ ، في معبرِ الأيّامِ.. يُعْطِي الشّذا برَجْعِ لُحُوني
والرّبا تَضْحَكُ الأزاهِرُ فِيْهَا   والسّنا راقِصُ الرّؤى في العيون
والوُرودُ التي تغرّدُ بالأنْفَاسِ باحَتْ بسرّهَا المَكْنُون
لِلْقُلوبِ التي تُصَفّقُ لِلْحُبّ ، وَتَشْدُو صَدّاحَةً للفتون
بالصّبا .. راقَصَ الأهِلّةَ فيها   وهوَ يَخْتَالُ فرْحَةً في الحزُون
لِلْهَوَى .. لَمْ يَزَلْ يُدَاعِبُ إحْساسي ، وَيَرْمي بعَاصِفٍ مَجْنُون
أنا في لُجّه أهيمُ مع النّجْوى .. ومعزافُ صَبْوَتي في يَمِيني

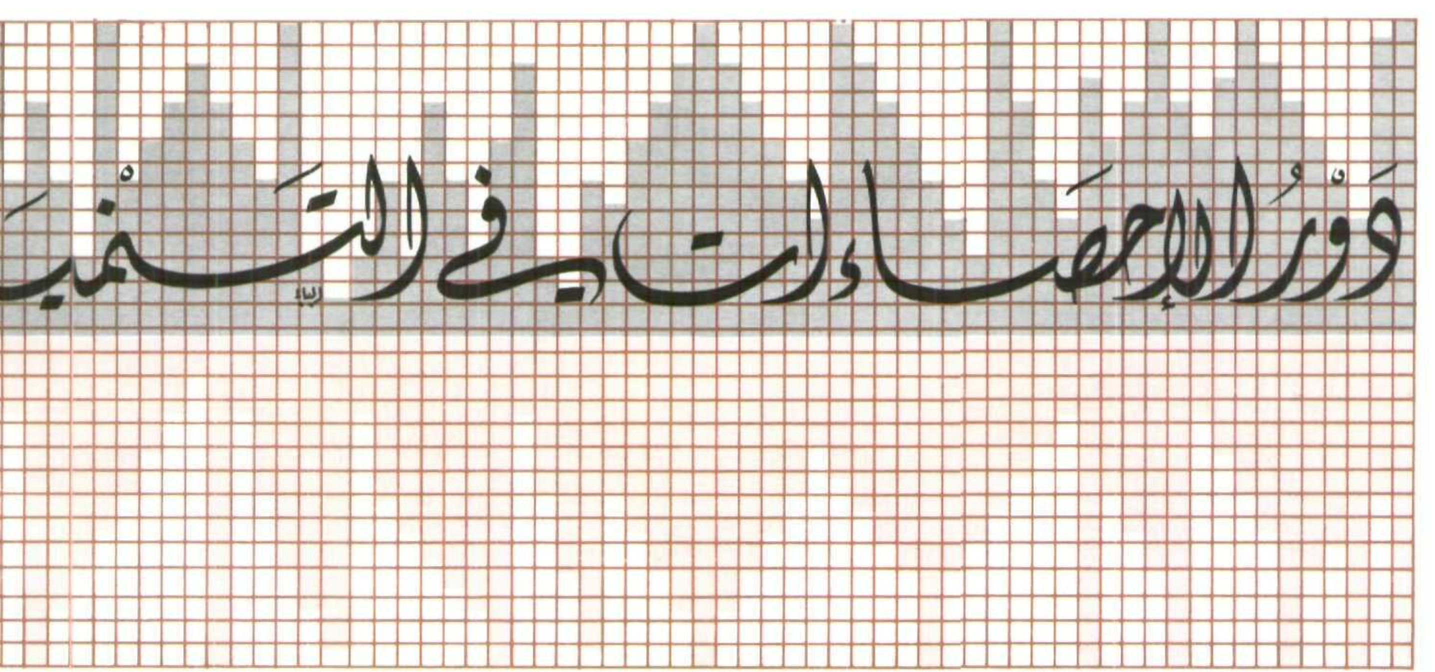
* * *

ذكْرَيَاتُ الصّبَا استثارتْ ظُنوني   وبِحُلْوِ الرّضَا ، أعادَتْ يَقيني
قَدْ دَعَانِي الهَوى اليْها .. فلبّى   خَافِقٌ يُسْرِعُ الخُطَى بالأنين
وأرَتْني الجمَالَ يضحَكُ للعَينِ بدنيا أطْرافها تغريني
ذَوّبَتْني ، وأرّقَتْني ولَكن   منية النفسِ في الغَرامِ الدفينِ
ولعيْنٍ أهْدَابُها تَبْهرُ الأعْيُن أصْبو لِفِتْنَةٍ تَستبيني
كُلّمَا كَحّلَ السّهادُ جُفُوني   وصحَتْ صبوَتِي ، وجُنّ جُنوني
أتملّى الرّؤى .. تغازلُ إحْسَاسي .. بمَا في فُتُونِها مِنْ فُنُون
أستطيبُ الهَوى ... ولوْ مزّقَ النّفْسَ بإعْصَار لاهِبٍ مَدْفون

* * *

ذكرياتُ الصّبا استثَارتْ شُجونِي   وأفَاضَت رَغْمَ اقْتِرَابِي حَنيني
كَمْ على حُبّها زحَفْتُ بآلامي ، وكَحّلتُ بالسّهادِ جُفُوني
وأراها الجمالَ يَضْحَكُ بالإشراقِ   لكنْ يَهيمُ بِي في الظّنُون
أتخطّى الى حِماها المسافَاتِ ، وأهْفُو لنورِها في الدّجُون
أتنَزّى والآهُ تَحْمِلُ نفساً   يسكبُ الحبّ ذوْبها في الأنين
وصداهُ المسكوبُ في عالمِ الصّمْتِ يناغِي الجَوى بقلْبي الحَزين
والتباريحُ لا تَزَالُ بمَا ألقَى تَبثّ الهَوَى بدَمْعٍ هَتُون
رقْرقَتْه الأنْغامُ في مَسْمَعِ الليْلِ ودوّى بِهِ المَدى في السكون
والصّدى لا يَزَالُ يَصْدحُ بالنّجْوى ، وفي مَسْمَعِ الجَمَالِ الحَنونِ
هُوَ في خاطري ، وفي صَفْحَةِ النّفْسِ ، وفَوقَ الظّنونِ عنْد يَقيني

طاهر زمخشري — جدة



ليس الاهتمام بالاحصاءات والاعتماد عليها من مبتكرات العصر الحديث . فمنذ عرف المجتمع البشري الحكم المنظم ، أحس بالحاجة الى أنواع معينة من المعلومات أو البيانات الرقمية التي لها اتصال بجانب أو آخر من حياته ، كعدد السكان ، والأراضي المنزرعة وأماكنها ومساحتها ، والمحاصيل الرئيسية ومناطقها ومقاديرها وأنواع الصناعات القائمة وحجمها ومكانها ، وما الى ذلك . بل ان البيانات كانت تستخدم وسيلة للحكم على قدرات البلاد المختلفة عن طريق اجراء المقارنات .

وكلما تطور المجتمع ونما ، وتعددت أوجه النشاط التي يمارسها ، عظمت الحاجة الى التوسع في جمع أمثال هذه البيانات وتنويعها ، والى توفير عناصر الدقة في اعدادها . ولكن الاحصاءات لم تكتسب أهميتها البالغة الا في المجتمع المعاصر حين اشتد تعقيد الحياة ، بحيث أصبحت نواحي حياتنا اليوم تعتمد في تنظيمها وتطويرها ، الى حد كبير ، على الاحصاءات المجمعة ، وعلى النتائج المستخلصة منها . وليس من المبالغة أن يقال أن من المؤشرات المهمة على اندراج مجتمع معلوم في دائرة التخلف أو على انتمائه الى عالم التقدم والارتقاء ، تطور البيانات الاحصائية ، وشمولها ، وكفاءتها ، ودقتها ، ومبلغ الاعتماد عليها في رسم السياسة .

وثمة أنواع كثيرة من الاحصاءات ، العامة والفرعية ، ولكنها جميعا ذات أهمية رئيسية بالنسبة الى شتى عمليات التنمية الاقتصادية ، سواء على مستوى مشروع ، أو وحدة ، أو قطاع فأكثر أو البلد بصفته الكلية .

وفي مقدمة هذه الأنواع ما يطلق عليه اسم « الاحصاءات الديموغرافية » (السكانية) أو « الاحصاءات الحيوية » ، وهذه تزودنا بها التعدادات التي تجري في البلد بين فترة وأخرى . وهذا النوع من الاحصاء يتضمن بيانات مفصلة عن : عدد السكان ، ومعدلات المواليد والوفيات ، ومن ثم معدلات التكاثر الطبيعي ، وتوزيعهم حسب الفئات العمرية وحسب الجنس (ذكورا واناثا) ، وكذلك تقسيمهم طبقا لمختلف الحرف والمهن التي يمارسونها ، وللعادات والتقاليد السائدة بينهم ، وللحالة التعليمية جملة وتفصيلا ، وللأمراض ومدى انتشارها .

وعن طريق هذا النوع من الاحصاءات نستطيع :

• التعرف الى الموارد البشرية من الناحيتين العددية والنوعية ، فتقدم الانتاج مثلا لا يتوقف على عدد السكان فحسب ، ولكن العامل الأساسي هو المستوى المعيشي لأفراد المجتمع .

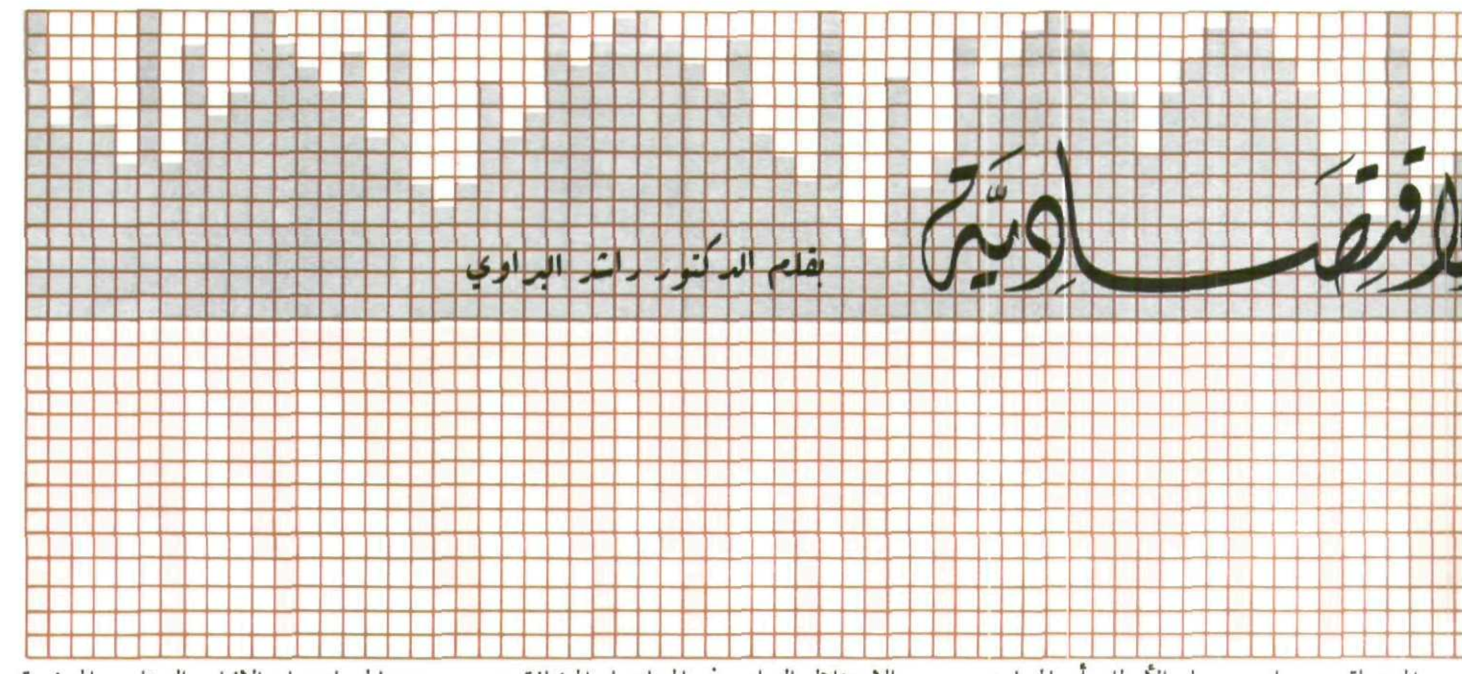
• الحكم على مدى اتفاق عملية التكاثر الطبيعي مع معدلات الزيادة في الانتاج ونوعه ، ذلك أنه اذا فاقت الزيادة السكانية مثيلتها في الانتاج ونوعه ، ترتب على هذا التفاوت انخفاض في مستوى المعيشة .

• التعرف على درجة رقي الأمة من النواحي الصحية والتعليمية مثلا ، فضلا عما للتشريعات القائمة والتقاليد السائدة من أثر على مبلغ هذا الرقي .

وهذا كله يزود المسؤولين بمؤشرات دقيقة عن الاتجاه الذي يتعين أن يسير فيه الاصلاح الاقتصادي .

واذا كانت للاحصاءات السكانية أهميتها بالنسبة الى السياسة الاقتصادية على المستوى القومي ، فهذه الأهمية ليست دون ذلك بالنسبة الى المشروع الفرد . فعن طريق التوزيع الجغرافي للسكان يستطيع صاحب المشروع أن يتعرف الى حجم الطلب على منتجاته في كل منطقة ، كما أن التوزيع حسب فئات العمر ، ونوع الجنس ، ومستوى المعيشة يجعل في الامكان تقدير المستهلكين الحقيقيين في المنطقة . وما من شك أن لعادات الأفراد ومستواهم التعليمي علاقة واضحة بأذواقهم ، وهكذا يتمكن المشروع من تحديد الاتجاهات الاستهلاكية .

وأهم احصاءات الانتاج ما تعلق منها بوجه خاص بقطاعات الزراعة والثروة الحيوانية ، والتعدين ، والصناعة ، والقوة المحركة . فلكي يتسنى رسم السياسة الزراعية السليمة التي تؤدي الى استغلال الموارد المتاحة في هذه الناحية المهمة من الاقتصاد القومي ، يتعين توافر البيانات عن : المساحة المنزرعة بالفعل ، وأنواع المحاصيل ومقاديرها ، ومساحة الأراضي التي يمكن استصلاحها واستزراعها ، وغلة الفدان (أو الهكتار أو الدونم) بالنسبة الى كل محصول على حدة . فاذا كانت المساحات المنزرعة بالفعل لا تنتج ما يسد حاجة السكان من المواد الغذائية مثلا ، وكانت غلة الفدان دون الحد الأمثل ، يهدف الاصلاح الزراعي الى زيادة الرقعة ، أو زيادة غلة الفدان ، أو الى هذين الأمرين معا . وزيادة الرقعة الزراعية هي ما يطلق عليها اصطلاح « التوسع الأفقي » ، ولكن الوصول الى هذا الهدف يتطلب معرفة الموارد المائية المتاحة



والمحتملة ، سواء من مياه الأمطار أو المجاري المائية السطحية أو من المصادر الجوفية ، والاستفادة من هذه الموارد كافة يتطلب في الوقت نفسه تنفيذ طائفة من مشروعات الري والصرف . ورفع الانتاج أو ما يعرف باسم « التوسع الرأسي » يتطلب اتخاذ تدابير مختلفة ، منها ابتكار أنواع وسلالات من بعض النباتات تكون أوفر غلة وأشد مقاومة لأمراض النبات وللآفات ، ومنها التوسع في استخدام التسميد لتعويض ما تفقده التربة من العناصر اللازمة لنمو النبات .

فلو افترضنا مثلا أن السلطات المسئولة عن التنمية الزراعية رأت أن في الامكان توسيع الرقعة الزراعية بمقدار مليون فدان في خمس سنوات ، ففي هذه الحالة لا بد من توفير البيانات عن :

- المناطق التي توجد بها الأراضي القابلة للاستصلاح .
- تكاليف الاستصلاح .
- الانتاج المتوقع من الأراضي الجديدة والاستخدامات المتوقعة .
- مصادر التمويل من العملة المحلية أو العملات الأجنبية .

ومن الاحصاءات المهمة في قطاع الزراعة ما تعلق بالقيمة المضافة ، أو الدخل الصافي من هذا القطاع ، وهو عبارة عن قيمة الانتاج الزراعي والحيواني ناقصا قيمة مستلزمات الانتاج ، التي تشمل بوجه عام تكاليف التقاوي ، والتسميد ، والمبيدات الحشرية ، والوقود ، والصيانة ، واستهلاك رأس المال الثابت ، والأجور وعوائد التملك ، وما الى ذلك . ولهذا البند أهمية واضحة ، اذ يساعد على معرفة مدى ربح الاستغلال الزراعي في المحاصيل المختلفة ، والتعرف الى عوامل الضعف في هذا الاستغلال – ان وجدت – حتى يتسنى علاجها والقضاء عليها .

وهناك أهمية أخرى لا تقل خطورة وشأنا . فلنفترض أننا عرفنا أن الدخل الصافي من القطاع الزراعي في بلد معلوم قد زاد مثلا بنسبة ١٠ في المائة خلال فترة زمنية معينة ، وأن عدد السكان نما خلال الفترة نفسها بضعف النسبة المشار اليها ، كان هذا دليلا على أن مستوى المعيشة يسير في طريق الانخفاض ، وخاصة في بلد يعتمد معظم الدخل القومي فيه على الزراعة . وفي هذه الحالة ، واستنادا الى الاحصاء ، يصبح من الضروري الاسراع بالأخذ بأسباب التصنيع ، بالاضافة الى بذل المزيد من الجهود من أجل رفع كفاءة الاستغلال الزراعي .

ولا يغيب عن البال علاقة الاحصاء الزراعي الوثيقة بالتنمية الصناعية ، لأننا نعرف عن طريقه المواد الخام الزراعية ، المنتجة بالفعل ، أو التي يمكن انتاجها لتوافر المقومات اللازمة ، وهي المواد التي يقوم عليها جزء من الصرح الصناعي .

ولاحصاءات الانتاج الصناعي أهميتها التي لا تنكر ، وهي أهمية تعظم في حالة البلاد التي تعتزم السير في طريق التصنيع . ويلاحظ أن هذه الاحصاءات تشمل الى جانب الصناعات التحويلية ، بما فيها من صناعات التشييد والبناء ، انتاج المناجم والمحاجر . ولهذا الأمر الأخير أهميته ، اذ عليه تعتمد امكانات الصناعات التي تقوم على مختلف عناصر الثروة المعدنية .

ويتناول احصاء الانتاج الصناعي المعرفة بالصناعات القائمة ، سواء من ناحية انتاجها الكمي ، أو من ناحية طاقتها الانتاجية . وعلى ضوء الأرقام التي يتضمنها الاحصاء ، يتمكن المسؤولون من رسم السياسة الصناعية : الصناعات القائمة التي يراد تحقيق توسع فيها لمواجهة مطالب الاستهلاك المحلي الى جانب التصدير الى الخارج ، والصناعات الجديدة التي يراد انشاؤها ما دامت المقومات الأساسية لنجاحها متوافرة . وموضوع الطاقة الانتاجية قيمة حيوية ، اذ كثيرا ما تعمل بعض المشروعات دون طاقتها الانتاجية ، الأمر الذي يترتب عليه ارتفاع في أسعار التكلفة ، وهذا وضع يتعارض مع الاعتبارات الاقتصادية السليمة . وقد يكون السبب في هذا راجعا الى خطأ في التقدير عند البدء في انشاء هذه المشروعات. وعندئذ يمكن اتخاذ التدابير المؤدية الى استغلال الطاقة العاطلة ، لأن استمرار وجودها معناه تعطيل لجزء من الثروة القومية .

ويشتمل الاحصاء الصناعي أيضا على عدد المشتغلين في الصناعات القائمة على اختلاف أنواعها ، وعلى مستوى الأجور ، وعلاقتها بالدخل القومي . ولمستوى الأجور علاقته بالاستهلاك ، وخاصة الاستهلاك الفردي ، فاذا كانت الزيادة في الأجور والاستهلاك تفوق مثيلتها في الانتاج المحلي والدخل القومي ، ترتب على هذا ضعف في القدرة الادخارية للمجتمع ، وبالتالي نقص القدرة على تمويل التنمية الاقتصادية بوجه عام .

ومن البنود الرئيسية في احصاءات الانتاج الصناعي ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر :

• رؤوس الأموال الموظفة في الأصول الثابتة، والاستهلاك السنوي، والتكوين الرأسمالي خلال السنة في القطاع الصناعي.

• مستلزمات الانتاج من خامات، ووقود، وسلع وسيطة، وبذلك تتكون لدى القائمين على تنفيذ التنمية الصناعية صورة واضحة عن احتياجات الصناعة الى هذه العناصر.

• القيمة المضافة (الدخل الصافي) في قطاع الصناعة، ومن هنا يمكن التعرف الى درجة كفاءة النشاط الصناعي.

• حجم المنشآت الصناعية، وهذا يكشف عن نواحي الضعف أو القوة، فاذا كانت النسبة الغالبة تتمثل في منشآت صغيرة، دل هذا على تخلف، لأنها تعجز عن استخدام المعدات والأساليب الفنية الحديثة.

ومن الأهداف الرئيسية المتوخاة من الاحصاءات الصناعية، التعرف الى مستوى الكفاية الانتاجية، أي مدى استخدام عناصر الانتاج. وبهذه الطريقة – أي قياس الكفاية الانتاجية – يمكن اختبار صلاحية مختلف الأساليب المستخدمة في الانتاج الصناعي، ومن ثم تطبيق أو استخدام أصلحها. كما يمكن تقدير الحجم الأمثل للوحدة الانتاجية، فضلا عن امكانات التوسع في الانتاج وخفض التكاليف، وكل هذا مما يدعم قدرات الصناعة وامكانات رواج منتجاتها في الداخل والخارج.

ومن الاحصاءات المهمة ما يتصل بموارد الطاقة من فحم، وبترول، وكهرباء، لأنها تلعب دورا رئيسيا، لا في ميدان الصناعة فحسب، كقوة محركة من جهة، وكأساس يمكن أن تقوم عليه بعض الصناعات، كما في حالة البترول والغاز الطبيعي مثلا، بل وفي مجالات الزراعة، والنقل والمواصلات، وفي الأغراض المدنية أيضا.

ان أية خطة للتنمية الاقتصادية ينبغي أن تأخذ في اعتبارها الموارد المتاحة من الطاقة، سواء المنتج منها بالفعل، أو الموارد المحتملة والتي يتعين استخدامها.

وتشمل احصاءات التجارة الخارجية على الصادرات والواردات المنظورة أو الحقيقية، أي على السلع المحلية والسلع الواردة من الخارج. وهنا نلفت النظر الى أن السلع الواردة لا تتضمن البضائع العابرة التي تدرج في الجداول الخاصة بالتجارة الخارجية تحت عنوان «المعاد تصديره». كذلك لا يدرج في نطاق هذه الاحصاءات الهدايا الشخصية وأمتعة المسافرين. وهذه الاحصاءات لا تشمل مقادير الصادرات والواردات، وقيمها، فحسب، ولكنها تبين أيضا المناطق التي يبعث اليها البلد بمنتجاته، والمناطق التي يستورد منها احتياجاته المتعددة.

واحصاءات التجارة الخارجية تخدم أغراضا كثيرة تتصل بعمليات التنمية الصناعية، منها:

• انها تبين حالة الميزان التجاري، فاذا أسفر عن تصدير الفائض من المنتجات كان ذلك في صالح البلد، واذا أسفر عن عجز في التصدير كان ذلك علامة تستأهل النظر. ومتابعة أرقام الميزان التجاري تكشف أيضا عن الأسباب التي يعزى اليها تصدير الفائض، أو العجز في التصدير. فقد يكون القصور في الصادرات راجعا الى ارتفاع الأثمان، أو افتقار الجودة في المنتجات، أو حدة المنافسة من جانب منتجات أجنبية، وهكذا. وقد يكون العجز في الميزان راجعا الى التوسع في الاستيراد، فاذا كان سببه أغلبية الواردات من السلع الأساسية التي تتطلبها التنمية، فان هذه الزيادة في الاستيراد لن تشكل قلقا أو خطرا، اذ سرعان ما يعوضها النمو في الانتاج المحلي. أما اذا كانت الزيادة مردها الى استيراد سلع وسيطة لأغراض التنمية، فهذا يشد من عزم المعنيين بالأمر على أن ينتج البلد بعض السلع الوسيطة المستوردة. وفي حالة التوسع في استيراد منتجات يمكن انتاجها محليا، فان هذا يشير الى بعض الاتجاه الذي يتعين أن تسير فيه التنمية. لكن اذا تكشف أن من أسباب العجز في الميزان التجاري الاسراف في استيراد السلع الكمالية فعندئذ يمكن الحد من هذه الظاهرة حتى يستقيم الأمر.

• وتشكل الصادرات والواردات من البضائع المنظورة عنصرا رئيسيا من عناصر ميزان المدفوعات. ومن هنا فان ما يطرأ على الميزان التجاري من فائض أو عجز يمكن أن يكون له أثر مماثل بالنسبة الى ميزان المدفوعات. وقد يعاني الميزان التجاري عجزا، ومع ذلك يسفر ميزان المدفوعات عن توازن أو فائض. وهذا ما كان عليه حال انجلترا قبل الحرب العالمية الأولى، حين كانت تتدفق عليها أموال ضخمة من خدمات تؤديها في مجالات النقل والشحن والتأمين، ومن أرباح وفوائد الأموال الموظفة في الخارج. اذن، فلا شك في وجود علاقة لها شأنها بين الميزانين. ولعل هذه الظاهرة أشد وضوحا في حالة البلاد التي تمثل التجارة الخارجية المنظورة المصدر الرئيسي لحصيلة البلد من العملات الأجنبية، وهو الأمر الذي تتسم به اقتصاديات البلاد النامية بوجه عام.

• تكشف أرقام التجارة الخارجية عن درجة النشاط في قطاع أو آخر من قطاعات الاقتصاد القومي، وهذا يجعل في الامكان التعرف على النواحي التي يتعين تشجيعها، والنواحي التي تتطلب علاجا. فاذا تبين أن البلد يستورد مقادير كبيرة من المواد الغذائية، فهذا دليل على قصور الانتاج المحلي من هذه المواد، وفي هذه الحالة يتعين البحث عن امكانية التوسع في هذا الانتاج، وعما اذا كان التوسع يعتبر اقتصاديا، أم انه يفضل استيراد المواد الغذائية، وتوجيه الأموال الى انتاج سلع أخرى، يشتد عليها الطلب، وتكون أكثر ربحا من انتاج الغذاء.

• تكشف هذه الاحصاءات عن علاقات البلد التجارية مع المناطق الجغرافية المختلفة: حجم هذه التجارة، أسباب تغيرها من وقت لآخر، امكاناتها واحتمالاتها. فقد تسفر دراسة الأرقام عن أن حجم التجارة مع منطقة جغرافية معينة قد اعتراه الهبوط وبصورة مطردة، الأمر الذي قد يكون راجعا الى الأسعار، أو جودة المنتجات، أو منافسة منتجات أجنبية مماثلة، وهكذا. ومثل هذه الدراسة توضح الطريق الذي يجب السير فيه، وقد تكون عاملا على التماس علاج هذا النقص في حجم التجارة عن طريق عقد مجموعات من اتفاقيات التجارة والدفع. وهذه النتيجة التي تكشف عنها الأرقام لا تهم الدولة فحسب، بل وتعني أيضا المشروعات القائمة كل منها على حدة، والتي يهددها تقلص حجم التجارة في أنواع معينة من السلع التي تقوم بانتاجها.

• على أساس احصاءات التجارة الخارجية يمكن تقدير نسبة التبادل مع العالم الخارجي، أي نسبة أثمان صادرات البلد الى أثمان السلع والمنتجات التي يقوم باستيرادها، ولهذا الأمر دلالة كبيرة، فارتفاع نسبة التبادل تشير الى وجود زيادة في القوة الشرائية للصادرات. وبهذا يمكن عند وضع خطة للتنمية، توجيه الموارد المتاحة نحو انتاج تلك الأنواع من السلع التي يمكن الاحتفاظ بأسعارها النسبية بالقياس الى الواردات.

وتشتمل احصاءات التجارة الداخلية على عناصر متعددة منها:

• رأس المال الموظف في المنشآت التجارية على اختلافها.

• حجم المنشآت التجارية من حيث رأس المال، وعدد العمال، والأجور المدفوعة، الخ.

• المشتريات والمبيعات والكميات المخزونة، وهذا

يوضح مستوى النشاط التجاري والطلب على السلع ، ودورة رأس المال .

- توزيع المنشآت في المناطق الجغرافية المختلفة داخل القطر .
- تكاليف عملية التوزيع لمعرفة فيما اذا كانت معتدلة ومعقولة أم انها أكثر مما ينبغي .

ومن هذا كله يصبح في الامكان تنظيم جهاز التوزيع بحيث تشق السلع طريقها من مصادر انتاجها الى أيدي أولئك الذين يستهلكونها ، وذلك بأكثر الأساليب كفاءة وأقلها تكلفة . كذلك تفيد احصاءات التجارة الداخلية في بيان أنواع ومقادير السلع والمنتجات التي يشتد عليها الطلب ويزيد على المعروض منها . كما تفيد في بيان التغيرات التي تطرأ على الطلب على بعض السلع ، من وقت لآخر ، ومن منطقة لأخرى .

ومن الاحصاءات التي تكشف عن مبلغ تطور قدرة البلد الانتاجية ومستوى رفاهة أهله ، التقديرات الخاصة بالدخل القومي . وهذه التقديرات هي التي تستخدم أداة للمقارنة بين البلاد المختلفة . ولهذا السبب نفسه نجد أن جميع الخطط التي توضع لفترات معينة انما تستهدف زيادة الدخل القومي بنسبة معينة خلال فترة زمنية معلومة .

وتتكشف أهمية هذا المؤشر على النحو التالي : اذا كانت نسبة الزيادة في الدخل القومي أكثر منها في عدد السكان ، أدى ذلك الى ارتفاع متوسط الدخل بالنسبة الى الفرد ، وبالتالي الى ارتفاع مستوى معيشته ، وهو الهدف الذي تسعى اليه المجتمعات كافة . ولا شك أن اطراد الزيادة الحقيقية في الدخل القومي تعكس تقدما في القدرات الانتاجية ، وفي استغلال موارد البلد ، المادية والمالية والبشرية .

كلّ هذه الأنواع من الاحصاءات التي أشرنا اليها ، هي احصاءات خاصة بقطاعات الاقتصاد القومي وما بينها من ترابط وتداخل وتكامل . فالاحصاءات الزراعية مثلا وثيقة الصلة بالانتاج الصناعي والتجارة الخارجية . والاحصاءات الصناعية وثيقة الصلة بقطاع الزراعة ، والنقل ، والمواصلات ، وموارد الطاقة على اختلاف أنواعها ، وبصادرات البلد ، ووارداته .

لكن هناك نوعا آخر من الاحصاءات ، أكثر شمولا ، ويطلق عليه اسم « الحسابات القومية » ، وهو تقرير شامل يبين النشاط الاقتصادي لأي بلد من البلدان ، بمعنى أنه يقيس الانتاج الكلي لجميع قطاعات الاقتصاد القومي ، ويبين العلاقات التي تربط هذه القطاعات بعضها ببعض .

وأهمية « الحسابات القومية » بالنسبة الى عملية التنمية الاقتصادية تتمثل في النواحي الآتية :

فعن طريقها يعرف المسئولون عن هذه التنمية ، من السلطات الرسمية المسئولة ومن رجال الأعمال على اختلاف ضروب نشاطهم الاقتصادي ، الموارد الموجودة والامكانات التي ينتظر الاستفادة منها . كذلك يستطيع هؤلاء جميعا التعرف على قدرة القطاعات المختلفة على انجاز ما يطلب اليها القيام به . وفضلا عن هذا فانها تسمح بالحكم على امكانية قيام تعاون وترابط فيما بينها في سبيل انتاج المقادير المطلوبة من السلع والخدمات ، وبعبارة أخرى معرفة درجة التكامل في الاقتصاد الوطني .

ويتكوّن هذا الاقتصاد من قطاعات عدة ، ولكنها ليست قطاعات يعيش كل منها بمنأى عن الآخر ، بل هي قطاعات تتفاعل فيما بينها ، يؤثر كل منها في غيره ويتأثر بغيره في الوقت نفسه .

فالحسابات القومية تعتبر من الأدوات الفعالة التي يتسنى بها متابعة تطبيق وتحقيق أهداف السياسة الاقتصادية للبلد ، والتعرف الى ما فيه من قصور أو ضعف ، وعلى ما يصطدم به من صعاب وعقبات ، وما قد يتعرّض له من اتجاهات معاكسة ، ومن ثم وعلى ضوء ما تكشف عنه عملية المتابعة ، يمكن اتخاذ التدابير الواجبة لملافاة القصور والتعثر .

وهناك أنواع أخرى من الاحصاءات تلعب دورا بارزا ورئيسيا في الحكم على درجة التقدم الذي حققه البلد ، وعلى الاتجاه الذي ينبغي أن يسير فيه الاصلاح الاقتصادي . فعن طريق الأرقام المتعلقة بميزانية الأسرة مثلا ، نستطيع التعرف على مستوى الاستهلاك الفردي ، وعلى مدى اتفاق هذا الاستهلاك مع الاعتبارات الاخلاقية ، والتقاليد المتوارثة ، والتقاليد المستحدثة ومع الأهداف العامة للبلد . فاذا رؤي أن هناك اقبالا على نوع من الاستهلاك السلعي يتعارض مع التقاليد السليمة أمكن اتخاذ التدابير الفعالة لوقف مثل هذا الاتجاه . كذلك تكشف ميزانية الأسرة عن مستواها الحضاري والثقافي ، وعن مستوى الدخل بالنسبة للفرد الواحد ، في البلد ككل وفي كل من المناطق الحضرية والريفية على حدة .

والاحصاءات الثقافية تلقي أوضح الضوء على المستوى الثقافي لسكان البلد ، فعن طريقها نعرف عدد أصحاب المؤهلات الفنية والعلمية . وما من شك أن التقدم الاقتصادي مرتبط كل الارتباط بدرجة انتشار التعليم . وعلى ضوء هذه الأرقام يمكن :

- تحديد الخطوات الواجب اتباعها لمحو الأمية خلال فترة زمنية معلومة .
- تقدير احتياجات البلد من أصحاب المؤهلات في مختلف ضروب التخصص المهني والعلمي ، ولهذا علاقته الوثيقة بالتطور الاقتصادي .
- تقدير العدد اللازم من معاهد الدراسة والمعلمين والمهنيين .

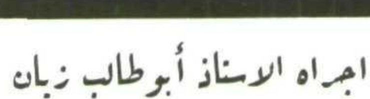
وفي ميدان التنمية الاقتصادية تدخل الاحصاءات الخاصة بنوع الجنس ، فلكل جنس متطلباته الخاصة من بعض المنتجات ، كما تدخل فيه الاحصاءات الخاصة بالحالة الزواجية ، فنعرف درجة انتشار الزواج ، وسن الاقبال على هذه المرحلة . وفي هذه الحالة يمكن معرفة أثر التقاليد السائدة أو التشريعات القائمة ، وكذلك الظروف الاقتصادية العامة .

وللاحصاءات عن الأمراض والاصابات والوفيات الناتجة عنها أهميتها التي لا سبيل الى التقليل من شأنها . فهي تبين مدى انتشار هذه الأمراض ، وأسبابها ، والمناطق التي تنتشر فيها أكثر منها في غيرها ، والفئات الأكثر تعرضا للاصابة بها بسبب ظروف البيئة أو المهنة ، وكفاءة الخدمات الصحية من وقائية وعلاجية . وعلى ضوء هذه الأرقام يمكن رسم تخطيط صحي من ناحية نشر الوعي والارشاد الصحي ، والانتاج المحلي من العقاقير والأدوية ، وغير ذلك من التدابير اللازمة .

من هذا ، يتبين لنا الدور الرئيسي الذي تلعبه الأنواع المختلفة من الاحصاءات في السير قدما بعمليات التنمية الاقتصادية . غير أن سلامة النتائج التي تستخلص منها وصحة الاتجاهات التي يتعين السير فيها ، انما يتوقفان الى حد كبير على دقة الأرقام والبيانات ، والكفاءة في التجميع والتبويب ، والطريقة الموضوعية في التحليل والاستنباط . ومن هنا كان من الضروري ايجاد الأجهزة الاحصائية ذات الكفاية العالية ، وتزويدها بأحسن الكفاءات البشرية وأحدث المعدات التي تلقى الاهتمام نفسه من جانب المشروعات ، كل منها على حدة ، لاتصال الموضوع بحسن أدائها للعمل الذي يطلب منها انجازه ■

د. راشد البراوي — القاهرة

الدكتور خالد الصوفي حول تاريخ الأندلس



لا يغيب عن القارىء العربي ، مدى ما يحتاجه تاريخ الأندلس من دراسة وبحث ، بيد أن قلة من المؤرخين وقفوا حيال هذا التاريخ يسجلون وقائعه ، ويستنطقون مشاهده ويعون حضارته التي بهرت أوروبا نحو ثمانية قرون . والدكتور خالد الصوفي صاحب كتابي : « تاريخ العرب في اسبانيا — ملوك الطوائف — جمهورية بني جهور » و « تاريخ العرب في اسبانيا — عصر المنصور الأندلسي » يعد واحدا من بين المشتغلين بالدراسات الأندلسية في الوطن العربي .. وهو عالم يحمل دكتوراه الدولة من جامعة مدريد ، وقد شغل منصب مدير المركز الثقافي بدمشق ، وأستاذ التاريخ الأندلسي في جامعتها .

وفي لقائي مع الدكتور خالد حول تاريخ الأندلس سألته :

• ما هي العوامل ، أو الحوافز التي دفعت المؤرخين الى تناول الأندلس علما وأدبا وتراثا ، وهل سيظل هذا التاريخ حيا على المدى البعيد ، يتناوله المؤرخون بجدة وطرافة ، أم هل سيقف عند نقطة معينة ؟

فقال :

— ان الأندلس بحكم موقعها الجغرافي في أقصى جنوب القارة الأوروبية ، وعلى مسافة قصيرة جدا من القارة الأفريقية التي لا يفصلها عنها سوى مضيق جبل طارق ، قد حظيت ليس فقط باهتمام الدارسين والمؤرخين العرب ، بل حظيت كذلك ، باهتمام المشتغلين في هذا المجال من غير العرب بصورة عامة ومن الأوروبيين بصورة خاصة .

والدراسات الأندلسية في جملتها تخص الأوروبيين من جهة بصفتها تشكل جزءا من تاريخ القارة الأوروبية ، كما تخص العرب بصفتها تمثل حقبة طويلة من تاريخهم . وهي تشكل جزءا من خارطة الامبراطورية العربية الاسلامية المترامية الأطراف وقتذاك .

ولذا فلا غرو أن يتناول المؤرخون العرب والأجانب معا الأندلس علما وأدبا وتراثا ، ولا سيما اذا عرفنا أن النواحي الفكرية التي ترعرعت ونمت في الأندلس ، كانت متقدمة على كل ما عرف من علم وأدب وتراث في أية بقعة من بقاع العالم آنذاك .

ولقد بدأت النهضة العلمية في الأندلس منذ أن أسس عبد الرحمن الأول « الداخل » الدولة الأموية في قرطبة في أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ، وقرّب اليه العلماء والأدباء وخصص الرواتب السخية للكثيرين منهم ، بل عين بعضهم وزراء له وفوضهم في تصريف شؤون الدولة ، فعلا شأن الأدب والفكر والعلم ، وبدأ ظهور التآليف والمصنفات القيمة في شتى المعارف والفنون .

غير أنه اذا كان عبد الرحمن الأول قد شغل نوعا ما بتوطيد دعائم دولته عن متابعة أمور الفكر بشكل دائم ، فان خلفاءه أمثال : الأمير عبد الله ، والخليفة الناصر ، والخليفة الحكم الثاني قد أولوا العلم والفكر والأدب عنايتهم ، فأعطت ثمارها اليانعة الناضجة . ومما يستحق الذكر أن ازدهار العلم والأدب في الأندلس لم يقتصر على الدولة الأموية ، بل تعداها الى حقبة ملوك الطوائف الذين حرصوا على تقريب الشعراء والأدباء والعلماء واغناء بلاطهم بهم ، واسناد المناصب الرفيعة اليهم ، كما كان الحال بالنسبة لبني عباد في اشبيلية ، وبني جهور في قرطبة ، وبني ذي النون في طليطلة ، وبني هود في سرقسطة ، وبني الأفطس في بطليموس وغيرهم من ملوك الطوائف الذين شغفوا بالعلم أكثر من شغفهم بالسياسة وشؤون الدولة ، مما أدى الى نمو الفكر وضعف السياسة ، الأمر الذي كاد يودي بحكم العرب آنذاك لولا ظهور المرابطين .

ولا يماري أحد في أن في ذلك الفكر من العوامل والحوافز ما يكفي لأن يدفع المؤرخين والدارسين الى تناول شؤون الأندلس بالبحث والتنقيب ، مما يحملنا على الاعتقاد بأن تاريخ الأندلس سيبقى حيا على المدى البعيد ، بل ستتكامل دراسته مع الزمن وستصبح أوثق وأمتن مما هي عليه الآن ، نظرا لازدياد عدد المختصين بكتابة مثل هذه الدراسات مع الوقت ، واكتشاف المزيد من المخطوطات التي تلقي أضواء على فترات من تاريخ الأندلس كانت لا تزال غامضة حتى الآن .

والواقع انه الى مطلع هذا القرن لم تحظ الدراسات الأندلسية بكثير من الاهتمام ، اللهم

الا من بعض المستشرقين الأوروبيين الذين عملوا في هذا الحقل في أواسط القرن التاسع عشر، أمثال المؤرخ الهولندي: «رينهارت دوزي» والعالمين الاسبانيين: «ميجيل آسين بلاثيوس» و«خوليان ريبيرا» وقلائل غيرهم.

بيد أنه منذ مطلع هذا القرن أخذ عـــدد المشتغلين بهذه الدراسات من العرب والأجانب يزداد بشكل ملحوظ، وبدأ نفر من المختصين بكتابة بعض التآليف العلمية والتاريخية والأدبية معتمدين على آخر المعلومات التي ظهرت في هذا المجال.

ففي حقل التاريخ والأدب عمل المؤرخ الفرنسي: «ليفي بروفنسال» بمساعدة عدد من المختصين المصريين على طبع ثلاثة أجزاء من أصل ثمانية تشكل كتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لمؤلفه «ابن بسام الشنتريني».

ومن جهة ثانية فقد نشر في السنوات الأخيرة ثلاثة أجزاء أيضا من أصل عشرة تشكل كتاب «المقتبس» لمن كان يسمى بأبي التاريخ الأندلسي «ابن حيان»، وان كان لم يعثر على الأجزاء السبعة الأخرى بعد. وطبع في هذه الفترة أيضا قسم من «نظم الجمان» لـ«ابن القطان» وقسم من «الاحاطة في أخبار غرناطة» لـ«ابن الخطيب»، وطبعت «الحلة السيراء» و«اعتــاب الكتــاب» لـ«ابن الابـــار» فضلا عن البحوث التي تجرى للكشف عن مزيد من المخطوطات الأندلسية المتنوعة

وهكذا فان التاريخ الأندلسي سيكتب في المستقبل بجدة وطرافة وبموضوعية علمية أكثر مما كان عليه من قبل.

* * *

ان مطول الأحقاب بالأندلس، واتساع الدراسات، قد جعل بعضها يأخذ حقه من البحث وجعل البعض الآخر، يركن به الى الدعة، لا تتناوله يد البحاث، أو يلتفت اليه.

لذلك كانت جلة هذه الأحقاب في حاجة الى تقليب وجوه الرأي فيها، والتصدي لها، لتشكيلها نقطة أولى بالدرس من غيرها من سائر النقاط، فأحببت أن يلقي الدكتور خالد ضوءا على بعض الأحقاب التي تفتقر الى الدراسة العميقة لأهمية ما يتخللها من أحداث، فسألته:

*** ما هي الحقبة أو الأحقاب التي تعتقدون أنها بحاجة الى دراسات عميقة دون غيرها في تاريخ هذه البلاد؟ وما هي العوامل التي تجعلها موضع اهتمام بالبحث أو التأريخ؟**

فأجاب:

– من المعلوم لدى الملمين بالدراسات الأندلسية أن الزمن الذي كانت الأندلس تشكل فيه جزءا من الامبراطورية العربية الاسلامية يقسم الى حقبات سبع، هي:

عصر الولاة، وعصر الأمراء الأمويين، وعصر الخلفاء الأمويين، وعصر ملوك الطوائف، وعصر المرابطين، وعصر المدحدين، وعصر مملكة غرناطة (بنو الأحمر).

ولقد تناول المؤرخون هذه الحقبات كلها بالدراسة دون أن يوفوها حقها جميعا. واذا كان لنا أن نجري شيئا من المقارنة في مدى تعمق الباحثين في دراسة كل منها أمكننا أن نقول أن بعض العصور قد درست أكثر من البعض الآخر، كعصر الولاة وعصر الدولة الأموية (الأمراء والخلفاء) وعصر المرابطين وعصر الموحدين. أما العصور الأخرى المتعلقة بملوك الطوائف وبمملكة غرناطة فانها لم تحظ باهتمام مماثل، وبخاصة عصر ملوك الطوائف.

والسبب الذي دعا الى عدم التعمق في دراسة عصر ملوك الطوائف، هو تداخل تاريخ هذه الممالك، والغموض الذي يكتنف حوادثها، وقلة المعلومات الموجودة بين أيدينا عنها. واذا كان التطور الأدبي لكل منها قد جرى بشكل مستقل عن غيره، فان التطور السياسي لم يتبع هذا الخط نفسه، بل وجد تشابك في تاريخ هذه الممالك، وبخاصة عندما كانت احداها تزول من الوجود لتصبح تابعة لمملكة أخرى من الممالك القوية التي كانت توجد آنذاك والتي كانت تطمح في مد سيطرتها على الممالك الأخرى المجاورة.

ولم يحدث أن حاول أحد الدارسين أو أحد المؤرخين أن يخصص مؤلفا لكل من تلك الممالك التي بلغ عددها ستا وعشرين مملكة، بل ان كل الدراسات التي تمت حول هذه الفترة قد خصصت مؤلفا واحدا للحديث عنها بصورة عامة وباقتضاب نسبي لا يمكن معه الدخول في تفاصيل تطورات تلك الممالك سياسيا وفكريا وأدبيا.

والواقع أنه اذا كانت بعض تلك الممالك الصغيرة ذات تاريخ فقير ضحل، فان بعضها الآخر ذو تاريخ غني دون شك يمكن أن يخصص له الدارس الأجزاء المطولة.

وناحية أخرى أود الاشارة اليها في هذا المجال وفي معرض الحديث عن النواحي التي تحتاج الى دراسة دون غيرها أو أكثر من غيرها، وهي الناحية الحضارية. فالحضارة الأندلسية حضارة كاملة من حيث تعدد نواحيها واختصاصاتها وتفرعها، وهي حضارة شملت النواحي التاريخية والأدبية والعلمية بمختلف فروعها، بل أنها لم تقتصر على ذلك فحسب، بل شملت النواحي الموسيقية والغنائية والاجتماعية أيضا.

واذا كان بعض المشتغلين في موضوع الحضارة الأندلسية، وهم غاية في القلة، قد خصص بعض الأبحاث للحديث عن طبيب أو عن شاعر، أو عن مؤرخ، أو عن موسيقي أندلسي، فان تلك الأبحاث لم تكن سوى دراسات موجزة، وفي أغلب الأحيان ناقصة أو مبتورة لا تعطي فكرة جلية عن الحضارة العربية في الأندلس وعن مدى تأثيرها في تلك العصور.

ولا أحب أن أمضي دون أن أذكر المؤرخ الفرنسي: ليفي بروفنسال، فقد كان المؤرخ الوحيد الذي خصص دراسة جيدة للنواحي الحضارية الأندلسية في الجزء الثالث من كتابه «تاريخ اسبانيا المسلمة».

* * *

ولقد كنت أتمنى ألا أسأل الدكتور خالد عن مدى ما عاد على العرب من هذه القرون الثمانية التي عاشتها الأندلس في ظلهم، لولا ما يروج على السنة بعض الكتاب، أو ينتشر على حد ضيق، حول نفعية هذه السنين الثمانمائة التي أقامت عليها الأندلس حضارتها الى حد التقليل من أهميتها، والتي لو امتدت لكان الوضع في تلك البلاد معكوسا ثقافة وحضارة.

فقلت للدكتور خالد:

*** كانت القرون التي أقامت عليها الأندلس تاريخها، قليلة العدد بالنسبة لهذه الحضارة التي**

انتشرت على مدى أوسع ، فلو امتد بها الزمن هل كان يمكن أن تكون هناك اضافات جديدة في الأدب واللغة والتاريخ أو أن الأمر يكون عكس ذلك ؟

فقال :

– دخل العرب اسبانيا في عام ٧١١م وخرجوا منها في عام ١٤٩٢م أي أن مدة بقائهم فيها كانت ٧٨١ عاما أو ما يقارب الثمانية القرون .

واذا كان السؤال أن هذه المدة كانت قليلة بالنسبة لانتشار الحضارة الأندلسية على مدى واسع ، فانني لا أقاسمك هذا الرأي ، وأعتقد أن ثمانية قرون ، بل وأقل منها ، كانت كافية لايجاد حضارة عظيمة ، كالحضارة الأندلسية ، وبخاصة اذا أخذنا بعين الاعتبار ، وضع هذه البلاد الفني والمادي وطبيعتها الجميلة ، وتهافت العلماء والأدباء والشعراء عليها من شمالي أفريقية ، ومصر ، ودمشق ، وبغداد ، وأنحاء العالم الاسلامي الأخرى .

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار هذه الحضارة هي ما يلي :

١ – ان الحضارة الأندلسية كانت أرقى حضارة عرفها العالم وقتذاك . ففي الوقت الذي كان فيه الخلفاء والناس بصورة عامة يقبلون على القراءة والتأليف والبحث ، كان أهل أوروبا ما زالوا غارقين في جهالة العصور الوسطى ، مشغولين بتكوين فرسان الحرب أكثر من انشغالهم بتكوين رجال الفكر ، بل أن معظم الأوروبيين كانوا يجهلون في ذلك الوقت القراءة والكتابة ، بينما كانت مدن الأندلس الرئيسية وهي قرطبة وغرناطة وأشبيلية ومالقة وغيرها مليئة بدكاكين النساخين التي كانت تحتوي على العشرات من هؤلاء ، والذين لم يكن وقتهم يسمح لهم بكتابة كل ما كان يكلفهم به عشاق الكتب من نسخ ومن أعمال كتابية .

واذا كان هذا هو الوضع في أوروبا ، فالحديث عن القارة الجديدة غير وارد ، اذ أنها لم تكن قد اكتشفت بعد . وبذلك تكون الأندلس العربية هي نقطة الاشعاع العلمي والأدبي والثقافي في عالم العصور الوسطى ، وهو رأي لا يختلف فيه فريقان ، ولا يعارض في صحته أي انسان .

٢ – كان انتشار الحضارة الأندلسية واسعا لكثرة الأسفار التي كان يقوم بها بعض المفكرين الأندلسيين الى المشرق يحملون معهم نواة حضارتهم لينشروها في الأصقاع المشرقية ، ولكثرة الأسفار التي كان يقوم بها بالمقابل بعض المفكرين المشرقيين الى الأندلس لقضاء فترة من الزمن ، أو للحصول على عمل موقت يطلعون خلاله على نتاج الأندلس ويعودون بعد ذلك لنشره في بلادهم

٣ – انتشرت حضارة الأندلس حتى في القارة الأوروبية نظرا لنفوذ العرب السياسي والعسكري على بعض أجزاء من جنوبي أوروبا ، ونظرا للسفارات الدبلوماسية والمبادلات التجارية التي كثيرا ما كانت تحصل بين الدولة العربية الأندلسية وبعض الأقطار الأوروبية والتي كان يدهش سكانها لما يرونه من عظمة الدولة العربية ، وتقدم حضارتها وازدهار أحوالها .

وعلى أساس من ذلك ، فان القرون الثمانية التي قضاها العرب في ربوع الأندلس ، أنتجت حضارة رائعة فريدة من نوعها . ساهم في ايجادها الفكر العربي والبيئة الاسبانية معا ، فجاءت متفوقة على ما عداها في تلك العصور ، ذات تأثير عميق في ثقافات البلدان المجاورة لها ، قادرة على أن تحفر لها مجرى ثابتا في تلك البقعة من العالم ، عدا ما حفلت به تلك الفترة العظيمة من مؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ دون أن تخلو من ذلك حقبة من حقباتها .

وليس من شك في أن وجود العرب في شبه الجزيرة الايبرية ، اذا ما احتفل بالمؤلفات والأبحاث والآراء المفيدة ، انه لو استمر فترة أطول لأدى للانسان خدمات أعظم وأكبر فائدة .

وأما اذا ذهب أحدهم الى القول بأن الدولة العربية في الأندلس قد تفككت في أواخر أيامها ، وضعفت وصارت الدول الاسبانية الشمالية تهدد وجودها ، وبالتالي فلا بد أن يكون نتاجها الأدبي قد ضعف ، فانه حتى في تلك الظروف التي ظلت فيها مملكة غرناطة وحيدة في الميدان تدافع قرابة المائتي سنة عن مصالح الدولة العربية في غرب البحر الأبيض ، لم يتوقف الفكر العربي عن الانتاج ووصلتنا مؤلفات هامة أدبية وتاريخية عديدة من تلك الفترة ، كان في مقدمتها مؤلفات لسان الدين بن الخطيب التي تبرهن على أن العقم لم يصب التفكير العربي في الأندلس ، وأن تلك البلاد ظلت منارا للعلم حتى آخر لحظة من وجودها . لذلك ، أكاد أجزم بأنه لو امتد عمر تلك الدولة لكانت هناك اضافات جديدة ، ولكانت هناك آراء جديدة ، ولكان هناك بالتالي حضارة أوسع وأعم وأشمل في مجالات الأدب واللغة والتاريخ وغيرها من العلوم . ولا يجوز ، في رأيي ، أن نفترض العكس طالما أن البراهين في أيدينا ، وطالما أن مصادر عديدة قد ألفت ما بين مطلع القرن الثالث عشر ونهاية القرن الرابع عشر الميلاديين تشهد بذلك .

ولما كانت كل حضارة في الأرض ، لها من الأنداد ، ما يجعلها قريبة الشبه الى حضارة تشافهها أو تناوحها من بعيد ، شأن الثقافات الملتقية على صعيد أرض واحدة ، تتقارب حينا ، وتبعد عن بعضها أحيانا ، بفعل الزمن أو انقطاع الأجيال ، حتى قيل أن حضارة الأندلس ، لها من النظائر ، ما ينفي عنها السبق والتأثير ، سألت الدكتور الصوفي :

* **هل لحضارة الأندلس نظائر ، أو أنداد في عوالم الأرض سبقت أو عاصرت أو لاحقت أو نافست ، وهل كان لها تأثير الحضارة الأندلسية ولماذا ؟**

– لكل حضارة مميزاتها وصفاتها التي تجعلها تختلف قليلا أو كثيرا عن غيرها ، ولا يمكننا القول بأن هناك حضارة أو حضارات تشبه تمام الشبه حضارة الأندلس التي انبثقت عن تفاعل الحضارة العربية الاسلامية مع تلك البيئة الاسبانية الغربية ذلك التفاعل الذي أنتج حضارة كان لها أكبر الأثر في ظهور العالم المتمدن الذي نعيش فيه اليوم ، وبشكل أوضح في ظهور النهضة الأوروبية التي أدت الى وصول العالم الى ما هو عليه من رقي وتقدم .

ولقد سبقت حضارة الأندلس حضارات عديدة راقية وعريقة في القدم أمثال الحضارات القديمة في الصين وفي بلاد ما بين النهرين ، وفي حوض النيل ، بيد أنها كانت تختلف في طبيعتها وفي علومها وفي طريقة معالجتها للمسائل عن حضارة الأندلس ، فان الشوط الزمني الذي كان يفصل بين تلك وهذه ، شوط طويل كانت الأمور فيه قد تطورت ، ونظرة الانسان الى كل ما يحيط به قد تغيرت عما كانت عليه .

ولا يغيب عن بالنا أنه قد عاصرت حضارة الأندلس حضارة عربية اسلامية شرقية وهي الحضارة التي ظهرت في دمشق أيام الخلافة الأموية ولانتقلت الى بغداد أيام الخلافة العباسية ، ومن هناك انتقلت في أواخر عصور الخلافة العباسية الى عواصم شرقية أخرى ، في الهند وايران وما عداهما من البلدان التي انضوت تحت لواء الامبراطورية الاسلامية آنذاك .

كان لهذه الحضارة العربية الشرقية ازدهارها ، وكان لها دورها الهام في نشر العلم وخدمة الثقافة في الجزء الشرقي من العالم الاسلامي ، وان كانت قد وقفت في طريقها عصور انحطاط تأخرت بها عن بلوغ شأو حضارة الأندلس . ولكن مما لا شك فيه أن التفاعل بين الحضارتين كان قائما ، وأن حضارة دمشق وبغداد قد أثرت في كل المنطقة التي تحيط بها شرقا وغربا من مصر الى الهند ، كما أثرت حضارة قرطبة في كل المنطقة التي تحيط بها شمالا وجنوبا من فرنسا الى المغرب الى أقطار شمالي افريقية جميعها .

على أنه قد لمعت في كل من الحضارتين أسماء في جميع أنواع العلوم والآداب ظلت على مر العصور في الشرق وفي الغرب نبراسا يستضيء به عالمهم والعالم الذي تلاهم .

وعاصرت حضارة الأندلس ، حضارة أخرى كان لها ازدهارها وتأثيرها الكبير في عالم العصر الوسيط ، هي الحضارة الصقلية وان لم يكن لها ذلك التأثير العميق الشامل الذي كان للحضارة الأندلسية ، نظرا لضيق رقعة الزمن الذي امتدت خلاله ، وقلة الأسماء التي لمعت فيها بالنسبة الى بلاد واسعة كالأندلس ، الا أن حضارتها قد بلغت دون شك مستوى رفيعا لم تكن أية حضارة أخرى تتمتع به في ذلك الوقت ، عدا حضارة الأندلس التي يقال أنها لو لم توجد لما وجدت حضارة صقلية .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن صانعي الحضارة الأندلسية هم صانعو الحضارة الصقلية في الوقت ذاته ، أي العرب الذين استولوا على تلك المناطق .

ولا نبعد كثيرا اذا قلنا أن قيمة تأثير أحدى الأمم في أمة أخرى من ناحية حضارية تقدر بمقدار نهوضها بها واصلاحها لها ، لذلك فقد كان للعرب تأثير عظيم في صقلية لأنها كانت حين جلاء العرب عنها أرقى ثقافة وصناعة واجتماعا منها حين دخلوها .

ولسم تَخْبُ حضارة صقلية مع ذلك بخروج العرب منها ، لأن حكامها المستنيرين من الشعب النورماندي حرصوا على أن يسيروا في حكم بلادهم بصورة خاصة من الناحية الحضارية على غرار الحكام السابقين من العرب ، فشجعوا العلوم والآداب والتأليف والكتابة والترجمة واستقدموا من أجل ذلك رجال الفكر من كل مكان ، وفي مقدمتهم المفكرون العرب ، فظلت راية العلم والتقدم ترفرف على تلك الربوع ، ربوع صقلية حتى مطلع عصر النهضة حين اقتبس الغرب عنها وعن الأندلس ما ساعده على النهوض من كبوته والاستيقاظ من سباته الذي دام قرابة عشرة قرون امتدت من مطلع العصر الوسيط في القرن الخامس الميلادي حتى نهايته في القرن الخامس عشر .

ولا شك في أن النظرية القائلة بأن العلوم قد تسربت الى الغرب عن طرق ثلاث هي الأندلس ، وصقلية ، والحروب الصليبية ، قد أصبحت نظرية معقولة ومأخوذا بها ، فالشرق آنذاك كان متقدما على الغرب بأزمان وأزمان ، وكان من الطبيعي أن تنتقل علوم الأندلس وصقلية الى الأقطار الأوروبية المجاورة كي تستفيد منها وتبني نهضتها عليها ، ولا سيما بعد أن استطاع « فرديناند » و « ايزابيلا » باتحادهما اخراج العرب من اسبانيا في عام ١٤٩٢م ، حينذاك خلا الجو لهما ولأوروبا كلها بصورة عامة لتغترف بنهم مما تركه حكام العرب المستنيرون في مختلف مجالات الثقافة ، فأخذ شأن الأقطار الأوروبية يعلو بينما أخذت الأقطار العربية تغط في سبات عميق لم تستفق منه الا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، لترى ركب الحضارة قد سبقها ، والبلاد التي اقتبست عنها قد جاوزتها ، فعملت على أن تعود الى ما كانت عليه ، وسط هذه المنافسة الزاخرة بالتطور السريع ■

أبو طالب زيان – القاهرة

نزعة إنسانية

بقلم الاستاذ فاضل السباعي

ما أزال أبحث عن فتى متوسط الطول ، ناحل الجسم ، شاحب الوجه ، يرتدي « كنزة » خمرية اللون ، ويحمل في يده كتابا سميكا مجلدا على نحو ما تجلد به « الأمالي » التي يتدارسها طلاب الجامعة ... وفي جبهته جرح — ما اشك في أنه غائر — ينحدر من ناصيته الى ما بين عينيه ، لما يندمل بعد ... أفما عرفه منكم أحد ، فدلني عليه أين يكون ؟

ومع أنه ليس بيني وبينه قديم ود أو سابق معرفة ، الا أن مصيري — في أمر ما — قد تعلق بكلمة ينطقها لسانه ، بشهادة يدلي بها أمام من وضعت الأقدار أمري بين أيديهم . أقول : « الأقدار » وأنسى أني أنا الذي فعلت ذلك بنفسي ! ولكن ، ألم تدفع هي — الأقدار — بهذا الفتى ، في ظهيرة ذلك اليوم المشرق ، الى أن يصعد « الحافلة » من بابها الأمامي ، مخالفا بذلك « الأصول » الواجب اتباعها ، والتي بدا سائق الحافلة وجابيها معا أحرص ، تلك الساعة ، على الأخذ بها وتطبيقها بحذافيرها ، من واضع الأصول نفسه ومن مشرعي القوانين جميعا !

أعلن ، بادىء ذي بدء ، أني مواطن يهيم بالنظام حبا ، ويتبع الأصول ، ويحترم القوانين النافذة . ولكني أطوي في جوانحي — بالاضافة الى ما سبق — عاطفة لاعلي اذا أرخيت العنان لغروري فسميتها « نزعة انسانية » ، ثم ادعيت بأن هذه النزعة قد تأصلت عندي منذ فجر حياتي الباكر ! وآه كم عانيت منها ! وكم دفعت بي الى مآزق ومزالق حين أغرتني بخوض غمار معارك ليس لي فيها — كما يقول المثل — « ناقة ولا جمل » ! ومهما اختلفت الآراء وتباينت — سواء في تشجيعي على هذا السلوك الانساني المحض أو في لومي وتعنيفي على جلبي المتاعب لنفسي — فمما لا أشك فيه مقدار ذرة أنكم — وأنتم الطيبون — تؤيدون حشري نفسي في « اعتداء » ، كان فيه شاب قوي البنية يتموم بضرب فتاة في طريق عام .. والناس علم الله ، تشهد عيونهم كيف أن أحمق شرسا ينهال صفعا على وجه فتاة وهي تولول وتستغيث ، فلا يفعلون لها شيئا الا أن يولوها ظهورهم ، وكأني بكل منهم يهتف بينه وبين نفسه اذ يدير عنها وجهه : « ما خصني ! فخار يكسر بعضه ! لولا أنها تستحق الضرب ما ضربت . لعل الباعث على تأديبها وسط الشارع فعل شنيع ارتكبته ! ما خصني ! أنا في طريقي الى زوجتي وأولادي ! » .

ذلك ما أحسب أن المارين هجسوا به ، وهم ينأون بأنفسهم عن « أرض المعركة » غانمين ! فأما أنا ، وقد وقفت على مقربة أشهد ، فقد أحسست الدماء تفور في عروقي ، ورحت أختبر قوتي البدنية ، فوجدتها — للأسف ! — ضئيلة جدا بالقياس الى شراسة المعتدي وعتوه . ولكن لم يكن بد من أن أعزم وأتوكل ، فالنزعة الانسانية تحفزني ... وهكذا تقدمت منه ، لأقول في تقريع وقد جهدت في أن أسبغ على صوتي نبرة لينة :

— أما حرام عليك ! أما حرام عليك ، يا رجل !

وتعلقت بزنده أعوقه عن موالاة الضرب . فاذا هو يدع الفتاة ، ويقبل علي بمقلتين يتطاير منهما الشرر :

— ما شأنك أنت ؟ !

لم يفزعني اقباله علي ولا تساؤله المستثار ، لأني كنت قد كرست نفسي لأسوأ العواقب ، بل لقد سرني أن الفتاة أفلتت ، في هذه اللحظة ، من قبضته !

تابعت في لهجتي ، وقد زدتها رقة :

— أما تخاف الله ، يا رجل ! فتاة ، جناح قاصر ! حرام عليك ! ذلك أنه لم يكن في جعبتي من ألفاظ لينة غير هذه أتوجه بها الى غريمي في هذا الموقف الصعب !

فأمسك بخناقي ، وزعق في وجهي كمجنون :

— قد خبطتني بحقيبة يدها على صدري ، حين ظنت في صعودها الحافلة أني غمزتها في جنبها !

— أفلم تغمزها أنت في جنبها !

— لا ! لم أفعل ! كنت قد لمحت ، ههنا ، الفتاة وهي تتوارى في المنعطف .

— اذا كان الأمر كما تقول ، فالحق معك !

فتراخت قبضته عني .

— أنا لا أضرب الناس الا بالحق !

— أجل انك رجل منصف !

— شكرا !

— عفوا !



وشد على يدي بحرارة خيل الي معها أن «سلاميات» أصابعي تتقصف ، وقد انفرجت شفتاه الغليظتان عن بسمة قبيحة .

ثم مضى عني شامخ الرأس . ومضيت أنا أصلح من شأني ، سعيدا أني حررت فتاة أبية أنوفا من قبضة فاجر غدار ، بقدر ما أحزنني أن قواي لم تسعفني في الانتقام لها ؟

فأنتم تؤيدون صنيعي ، اذن ، لأن الضحية فتاة مهيضة الجناح . أفتراكم تمضون في تأييدي اذا ما كانت الضحية فتى غض العود ، يبني المجتمع على أمثاله آمالا عراضا في اقامة دولة لأمتنا ، يرفع فيها الظلم عن كاهل والفقر عن كاهل ، فنتفيأ في أظلالها عدلا ومرحمة ونعيما ؟ !

رأيته ، ذلك الفتى ، أول ما رأيته ، وأنا في الحافلة أتخذ مكاني الى اليمين بجوار الشباك (ان ما يثير نزعتي الانسانية يقع لي غالبا في الحافلات العامة !) .

ولأبدأ القصة في دقيق تفاصيلها : حطت الحافلة في « موقف الجامعة » . فامحته ، ذلك الفتى الطيب ، وهو على الرصيف ، وقد حمل في يمينه « أماليه » الجامعية . بدا لي مواطنا عصاميا ، وهو يلبس كنزته الخمرية وبنطالا يعوزه الكي . ولكن جبهته كانت سليمة لم يفلقها جرح بعد !

أعترف بأني أحببت هذا الفتى منذ وقعت عيني عليه ، متسمرا أمام باب الحافلة الأمامي ، يرنو الى درجته السفلى في انتظار أن ينقطع سيل النازلين ، لم لم يلتمس الباب الخلفي ، فيصعد منه مع الصاعدين بصورة نظامية ؟ أغلب الظن أنه يستحضر ، الآن ، في ذهنه – وهو الذكي الألمعي آخر ما تلقى من محاضرات اليوم ! أو لعله يتفكر – وهو العصامي الفقير – من أين يتدبر أمر مصاريفه المتوجب دفعها في بداية هذا العام الجامعي الجديد ! أجل ، أحببته ، وملأ صدري اعجاب به ، دون أن يكون في وسعي أن أحدس بأن مشكلة ما ستقع ، اللحظة ، تحت ناظري !

كان السائق – الذي يجاذب الجابي أطراف الحديث – يترصده من وراء مقوده ، وكأنه أخذ على عاتقه أن يحول بينه وبين الصعود من هذا الباب الأمامي ، حرصا منه على النظام ! حتى اذا لفظت الحافلة آخر النازلين ، وهم الفتى ، الشارد الذهن ، بأن يصعد ، مطأطئا هامته ، وعيناه ما تزالان في أسفل الباب ، أعمل السائق يده في المفتاح الى جانبه ، فانزلق الباب الحديدي بسرعة باغتت الفتى ، فالتطمت جبهته بحد الباب لطمة ردته الى الوراء ، وأيقظته من عميق ذهوله ... فرفع رأسه كالمصعوق ، تتساءل عيناه الحالمتان ما الخبر؟ وبدا أن السائق قد تأثم أو خاف مغبة صنيعه ، فاذا هو يفتح الباب ، متيحا له أن يصعد ، زاعقا فيه بصوته العريض :

– مئة مرة قلنا : الصعود من خلف والنزول من أمام !

وثنى الجابي ، وهو يستند بجنبه على غطاء المحرك ، بصوت رفيع مصدوع :

– ألم تتعودوا النظام ؟ !

الحق ، لقد أحسست اللطمة في جبهتي أنا . وخيل الي أن الفتى ، الذي يتقدم عبر الحافلة نحوي ، يكاد يتهاوى في الممر مغشيا عليه ، من لطمة الباب الثقيل ، ذي الحد المجرد من وقاء لين الملمس !

وتحركت الحافلة نحو الموقف الأخير في « منتهى الخط » . وركن الفتى الى مقعد في الصف الذي أمامي ، وكتابه في حجره . ولكن السائق والجابي كليهما ، ما كان لهما أن يكفا عن التصاريح والصراخ ، وهما يخلسان الفتى النظرات الهلوعة ... يزعق أحدهما :

– ألف مرة قلنا : الصعود من خلف ! الصعود من خلف ! فينعق الآخر :

– أنت ، بالأحرى ، طالب جامعي ، تفهم ! فيهيب الأول بجمهور الراكبين :

– تعلموا النظام ! آن للناس أن يتعلموا ! فكرت ، وأنا مستشيط غضبا : أجل ، آن لنا أن نتعلم النظام ! ولكن النظام جدير به أن يتبعه جميع الأطراف ! فعلى حين يسمح هذا « النظامي » لنفسه أن يخبط بحد باب حافلته رأس مواطن ، عصامي ، ذاهل عن نفسه ، لمجرد محاولته الصعود من أمام ، فانه يسمح لنفسه بأن يضغط على كوابح السيارة في عرض الشارع ، على حين غرة ، فيدع الركاب يترامى بعضهم فوق بعض ، من أجل أن يلتقط صديقا له عزيزا أومأ بيده ، وربما كان « أفنديا » ممن بيدهم الحل والربط ولو لم تكن له به معرفة سابقة .

على أن ما أثار عجبي ودهشتي ، أنه بقدر ما كان الفتى صامتا لا ينبس بكلمة تعبر عن كظيم ألمه وعن عظيم ضيقي الذي أوشك أن ينفجر ، فان صرخات الرجلين كانت تزداد حدة ، وكأن أمرا ما ، لا أتبينه ، يدفعهما الى أن يهدرا باحتجاجاتهما الصاخبة ... الى أن صرخ السائق ، وهو يرامق الفتى من خلال المرآة المثبتة فوق رأسه :

– أتريد أن توقعنا في بلية ! ! أتريد أن تخرب بيوتنا ! !

كان الفتى ، ههنا ، قد رفع يده الى جبهته يلامسها بحذر ... ثم نظر الى كفه : فهاله ما رأى ! فاذا يده الأخرى تبحث عن شيء في جيبه : كان قد آن للدم أن ينبثق من الجبهة التي فلقها حد الباب الحديدي الثقيل !

وأعلن ذو الصوت المصدوع :

– لو أنك اتبعت النظام ، لما فعلت في نفسك ذلك ! فأجابه الآخر ، متصنعا اللامبالاة ، وهو ما يزال يختلس النظر عبر المرآة :

– دعه ! هذا جزاء المخالف ، حتى لا يصعد بعد الآن من غير الباب المخصص للصعود !

كان اعجابي بالفتى ، كان الحب في خافقي ، قد تحول الى اشفاق . ولكن الاشفاق – هوذا – يستحيل الى ثورة ، ثورة طفر معها الدم الى رأسي ... وما وعيتني الا وأنا أدفع – استجابة لنزعتي الانسانية – من حلقي صوتا أودعت فيه كل ما ملكت من عزم ، وأنا ألوح بيدي :

– ضربتموه بحد الباب ، ففلقتم جبينه ، ثم أنحيتم عليه باللائمة ، شامتين ، أيها الظلام !

انطلق صوتي قويا على نحو أجفل منه صاحبا الحافلة ! وتلفتت وجوه الركاب الي – أحسست بها – تبارك تدخلي وتشد من أزري !

تابعت ، وقد وجدتني سيدا للموقف :

– بدلا من أن تكفكفوا جرحه النازف ، قعدتم تقرعونه وترددون له : اتباع النظام! جزاء المخالف! ان التقاطكم صديقا من قارعة الطريق لا يشكل عندكم مخالفة ، ولكنها جريمة تستوجب شق الرأس اذا ما حط مواطن ، ذاهل عن نفسه ، قدمه في الباب الأمامي ! !

واسترد السائق أنفاسه :

– أنت ... ما دخلك في هذا ؟ !

صرخت فيه :

– ما دخلي ؟ ! (وازددت تحليقا في أجواء نزعتي الانسانية) ان لي الحق ، كمواطن صالح ، أن أتدخل ، وأن « أشهد » أيضا في قسم الشرطة وأمام قاضي التحقيق ! لقد شاهدت بأم عيني كيف وقعت « الحادثة » ، ووقفت على تمام تفاصيلها !

وتلفت حولي أتملى النظر من الأحداق التي ترمقني باعجاب : لقد وفقت الى أن أعبر – وبجرأة رائعة – عما تمنوا أن يقوموا به ، هم أنفسهم ، في وجه الباطل ، لولا حرصهم –

المشروع – على أن يعودوا الى بيوتهم آمنين . بدت لي عيونهم طافحة بالشكر ، تهنئني فتقول : « أحسنت ، أيها الشاب ، في دفاعك المجيد ! » آه ، كم قسوا على الفتى عندما فلقوا جبينه الناصع « أنت ضمير الجماعة ، أنت ضميرنا اليقظ ، أيها المقدام ! » ، فازددت انتعاشا !

والمـا الفتى ، فلم يكن في وسعه أن ينظر الي : كان مشغولا بالضغط على جرحه النازف هوذا ينتصب واقفا ، ويتلمس طريق النزول ليضمد جرحه . أين الاسعاف ؟ ان في نفسي أن أتابع رعايتي له . فلأمض معه الى أقرب صيدلية .

كانت القافلة قد استقرت في منتهى الخط . وتدافع الناس طلبا للنزول . فصلني عن الفتى راكبان اثنان . ولكن آخرين انبثقوا من بين المقاعد ، فانفرجت المسافة بيني وبينه . تراص الناس من حولي جعلني أسير كنملة . اتسعت المسافة . الفتى ينحدر من الحافلة . عيناي تحضنانه . بات يفصلني عنه ركاب لا عد لهم ! .

واتجهت بناظري ، عرضا ، نحو صاحبي الحافلة : كانا يقفان معا ، جنبا الى جنب ، ديدبان والى جواره قزم ! آه ، ليت الأمر بيدي ليت جرح الفتى كان غير بليغ ، فطاوعني في سوقهما الى القسم ، فان في تأديبهما عبرة وفيه نفعا للوطن !

وعلى مقربة من الباب ، واجهتني عينا الديدبان : قدحتاني بنظرة شزراء ، فرشقته بنظرة متعالية ، وأنا أستمتع بنصري المؤزر : لقد تغلبت على اثنين من العتاة ، فأخرستهما على مشهد من من ملأ ! ولكن ... ما باله يتفرسني ، هو وزميله القزم ذو الصوت المصدوع ، بعيون تقدح شررا ؟ كأني بهما يتربصان بي ويبغيان شرا !

أغضيت ، وأنا أنعطف يمينا أنشد الباب : أين الجريح ؟ اني ... اني أريد أن أعينه في مصابه ! أين الفتى ؟

فتصدى لي الديدبان ، وقد أخذ زندي الأيسر برفق ، يسألني بصوت حرص على أن يكون خفيضا :

– هل أنت من رجال الأمن ؟ ولما لم يكن في نيتي أن أنتحل شخصية ما ، فقد أجبته ببساطة :

– لا ! فأحسست يد القزم تتشبث بزندي الآخر :

– لا ، وتتطاول علينا ؟ !

– سكت المصاب ولم تسكت ! أردت أن توقعنا في بلية ؟ ! والله لنوقعك فيها ، ونخرب بيتك ! أين هويتك ؟

وتماسكت ، وقد أيقنت أني موشك أن أسقط في شرك :

– أية هوية ؟ !

– ألا تعلم أية هوية ؟ (رافعا من صوته) خذ ، أنا أعلمك ! وأهوى بكفه على وجهي . فصرخت فيه :

– نزل يدك . لا تضرب !

فثنى بلكمة على صدري . فصرخت من ألم :

– آخ ! لماذا تضربني ؟

مديرا ، في ذلك ، لحاظي في أرجاء الحافلة : فوجدتها خاوية نظيفة !

وتولى القزم الرد علي :

– أفلا تعلم ؟ اننا نؤدبك . هذا جزاء من يتدخل في ما لا يعنيه ! (ولكمني في بطني ، دون أن يفلت زندي) هيا الى القسم ! أنت اعتديت علينا أثناء قيامنا بوظيفتنا ! !

هتفت موجعا :

– أنا اعتديت ؟ !

– طبعا ! طلبت منك ثمن التذكرة ، فقلت : « هوية جامعية » ، قلت لك : أرنيها » ، فشتمتني ، ثم اعتديت علي بالضرب ! هل تنكر ؟ !

– ولكن ... هذا افتراء ! أنتما اللذان ضربتما راكبا بحد الباب في جبينه ، فسال دمه !

– أنت تتوهم ! أنت اعتديت علي حين طالبتك بالهوية ، وزميلي شاهد على ذلك . هل تحمل هوية جامعية ؟ !

وأدركت أن نزعتي الانسانية قد ساقتني الى فخ نصبه لي الرجلان !

صاح السائق في من هموا بالصعود :

– لا أحد يصعد . « مستودع » !

وقـذف بنفسه الى مقعده ، فأغلق دوني الباب فأشبهت جرذا كبيرا قد حوصر في مصيدة متحركة وأن « المصيدة » لتمضي بي الى القسم ، للتحقيق معي في جرم لم أرتكبه ، أنا الذي حدثت النفس ، قبل دقيقة ، بأمنيتي في أن أسوقهما الى القسم لتأديبهما على ارتكاب جرم هز ضمير الجماعة !

وابتسمت في أسى ، وأنا ألقي على الزحام نظرة يائسة ، بحثا عن الفتى الذي ضاع مني : أين هو ؟ ما اسمه ؟ ... انه « الدليل » الوحيد على براءتي ، وعلى ادانة اثنين من العتاة !

ثم تساءلت ، والألم يعتصر قلبي : أواه ! أين هي الأحداق التي رمقتني بالاعجاب ؟ أين هي الوجوه التي باركت تدخلي وشدت أزري ؟ ... وعجبت كيف أمكن أن ينقلب «سيد موقف» كان قبل هنيهة يهدر بملء فيه دفاعا عن حق الضعيف ... كيف ساغ : في عرف الزمان أن ينقلب ، في مثل لمح البصر ، الى ... ! ! !

* * *

– حسن ، يا بني ! اني اذا أخذت بأقوالك في أنهما تسببا في جرح انسان ، وأنهما اعتديا عليك بالضرب المبرح ... فأين الدليل على صحة دعواك ؟

– سيدي ، أقسم بالله ...

– أنت تقسم لي على صحة أقوال أنت قائلها ! ولكن الشاكي يأتيني بمن يقسم له على صحة أقواله ! أنت واحد ، وهما اثنان : مدعي وشاهد ، والقانون هو القانون . وهذا الزر المقطوع من بدلة الجابي ، قرينة اضافية على أنك شددته ، أثناء المشاجرة ، من ياقة سترته ، فانقطع . عجبا ! تريدني أن أصدق رواية ترويها عن أن باب الحافلة الأمامي قد أغلق فجأة ففلق جبين فتى ذاهل عن نفسه ، وأن دمه قد سفح وأن الرجلين – الشاكي وشاهده – ردحا له طويلا ، وأن دمك – أنت أيضا – قد طفر الى رأسك ، فتصديت لهما بدافع مما سميته لي « نزعتك الانسانية » التي تحملك على أن تنافح عن المظلومين ، وأن الرجلين انفردا بك أخيرا ، فأوسعاك صفعا ولكما في صدرك وبطنك ... تريدني أن أصدق هذه الرواية كلها دون شاهد أو دليل أو حتى زر مقطوع وأن أكذب شاهدا أتى به خصمك هو هذا السائق الطويل العريض ، وأن أكذب الزر (عاد الشرطي يقلب الزر في باطن كفه ويتأمله كشيء عزيز نادر) .تريدني أن أكذب هذا الزر الذي قطعته من بدلة الجابي الرسمية ، أثناء اعتدائك عليه بالضرب ، حين زعمت له أنك تحمل هوية تخولك حق الركوب بنصف تذكرة ، ثم بدا أنك لا تملكها... عيب ! هذا عيب ! أقلعوا عن الكذب والأدعاء ، يا ناس ! ..

* * *

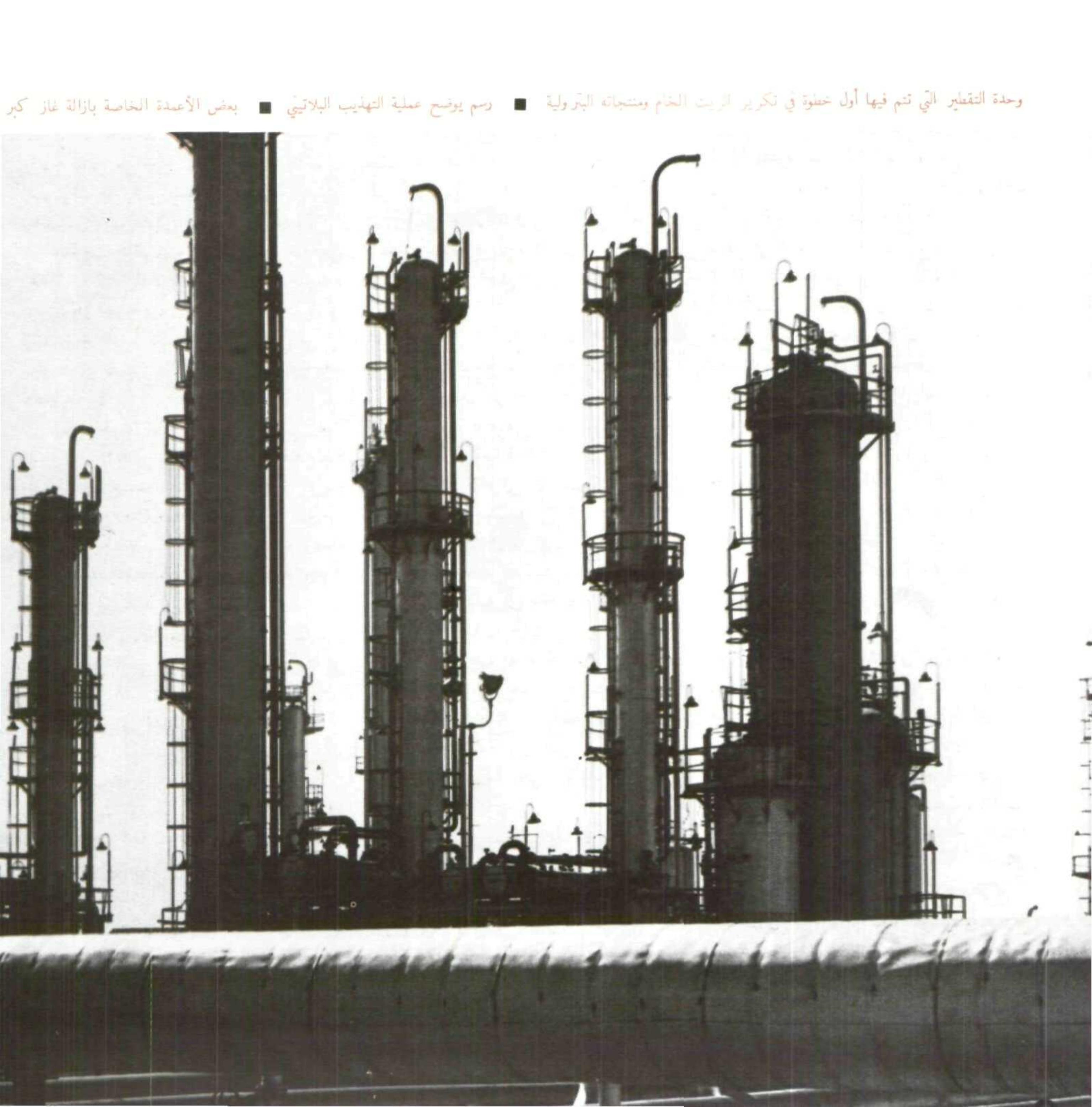
مـا أزال أبحث ، من يومي ذلك ، عن فتى متوسط الطول ، ناحل الجسم ، شاحب الوجه ، يرتدي كنزة خمرية اللون ، ويحمل كتابا سميكا مجلدا على نحو ما تجلد به « الأمالي » التي يتدارسها طلاب الجامعة ... وفي جبهته جرح – ما أشك في أنه غائر – ينحدر من ناصيته الى ما بين عينيه ، لما يندمل بعد ..

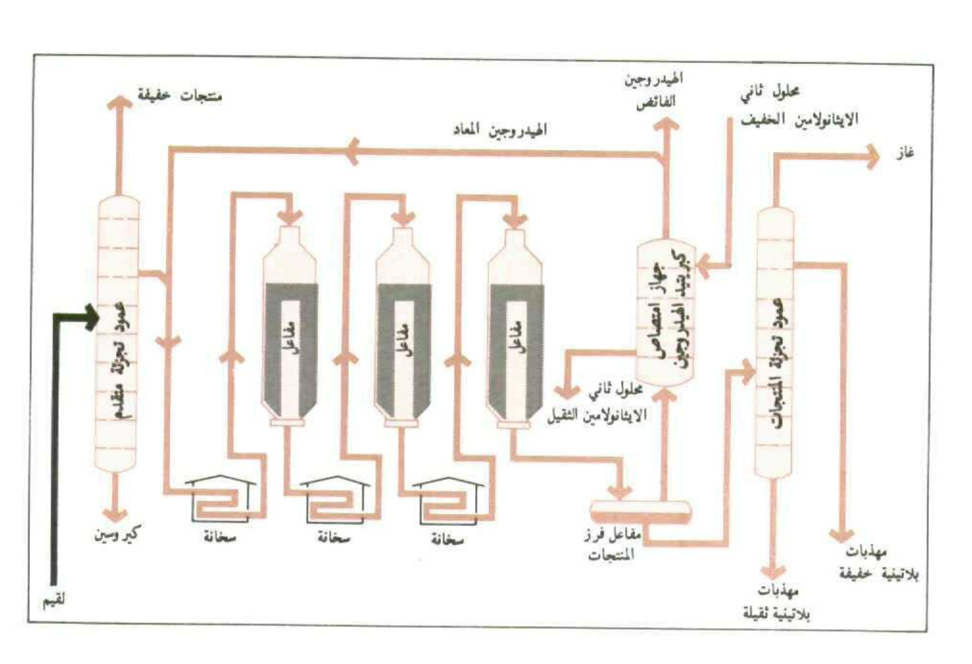
أفما عرفه منكم أحد ، فدلني عليه أين يكون ■

فاضل السباعي – دمشق

تدخل في نطاق صناعة الزيت المتشعبة مراحل عديدة وعمليات معقدة من
للزيت وتطوير مشتقات جديدة من منتجات البترول تؤائم مقتضيات التطور المت
والآلة ... فالتهذيب والتكسير والبلمرة والألكلة والحلقنة والتماكب وغيرها، إنما
تشكل حيزاً بارزاً في نطاق هذه الصناعة الحيوية وعملياتها المتشابكة المتداخل

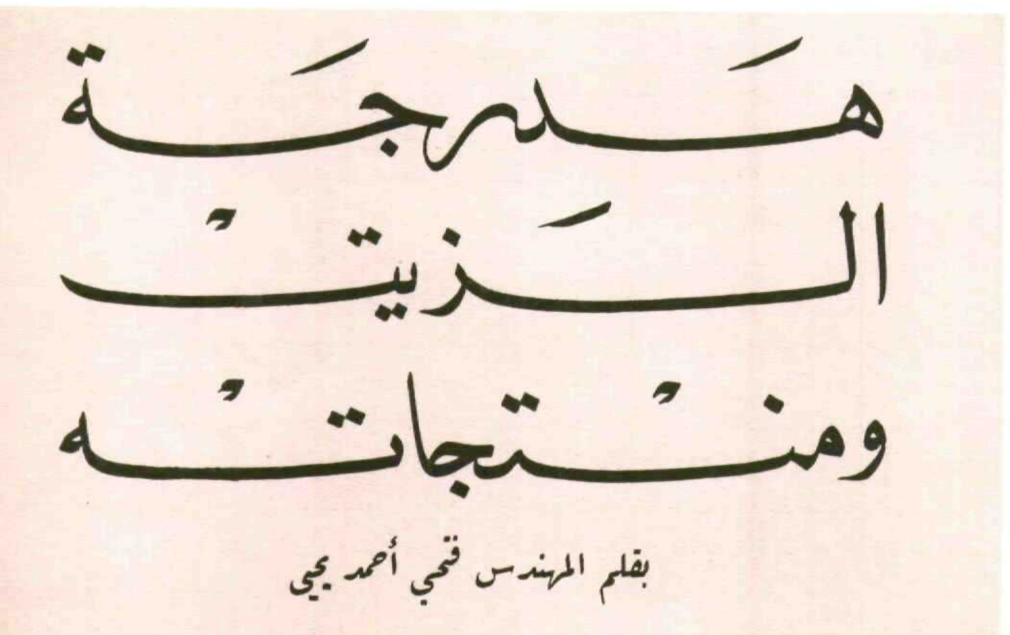
وحدة التقطير التي تتم فيها أول خطوة في تكرير الزيت الخام ومنتجاته البترولية ■ رسم يوضح عملية التهذيب البلاتيني ■ بعض الأعمدة الخاصة بازالة غاز كبر





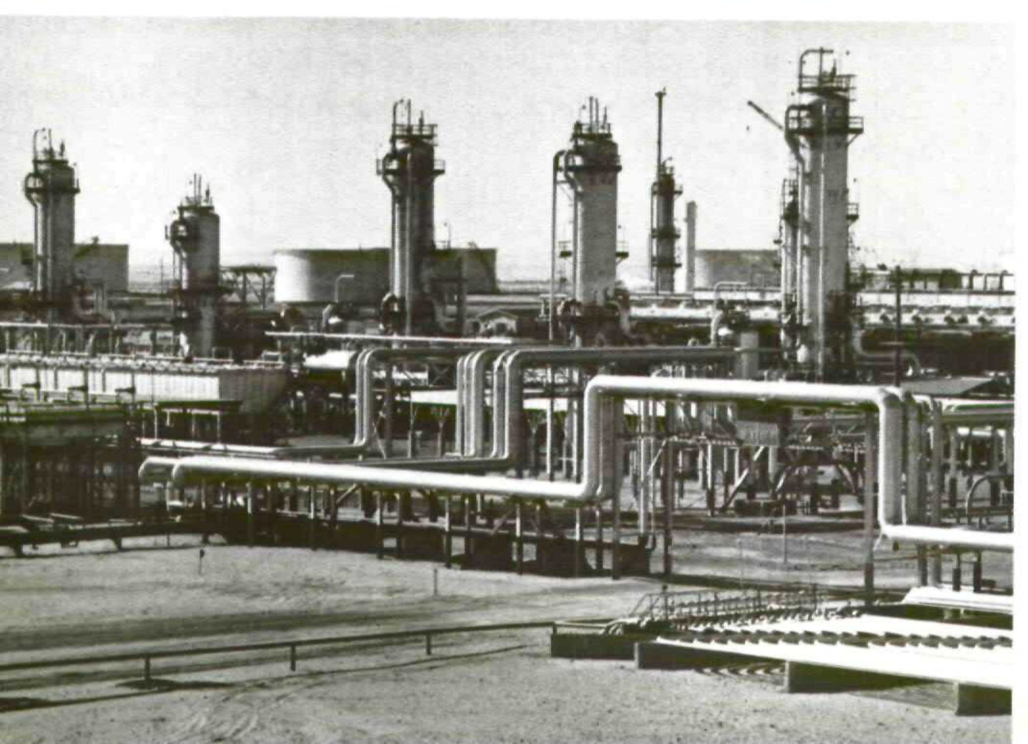
ـالجة العَناصِر الأساسـيّة
حقـل صِنـاعَةِ المحُـرِّك
ـّـات كِيمِيائيّـة بحْتـة

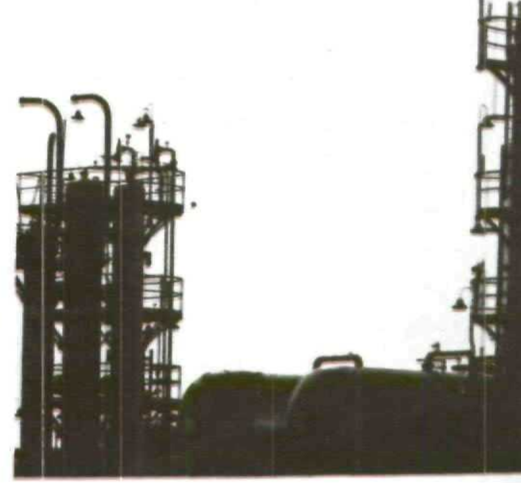
الزيت الخام في معمل التركيز في بقيق ..

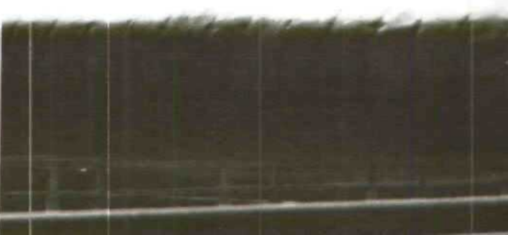


هدرجة الزيت ومنتجاته

بقلم المهندس فتحي أحمد يحيى







الهدرجة التي نحن بصددها في هذه العجالة عملية ذات أهمية كبيرة في صناعة الزيت، وخصوصا بالنسبة لمنتجاته ومشتقاته. وهذه العملية ليست مقصورة في هذا المجال على اضافة الهيدروجين المشبع الى «حلقات الهيدروكربونات الأولوفينية — Olefinic Bonds» أو «الهيدروكربونات العطرية — Aromatic»، وانما تشمل أيضا تفاعلات كيميائية مثل عمليات التكسير ونزع الكبريت ومشتقاته، ونزع النيتروجين والأوكسجين والمعادن من الزيت وذلك باستخدام الهيدروجين. وتتم هذه التفاعلات في العادة تحت درجات حرارة عالية وضغط عال أو باستخدام وسيط كيميائي «Catalyst» يساعد على التفاعل.

ومن الجدير بالذكر أن أسلوب الهدرجة في تهذيب منتجات الزيت، ومشتقاته، باستثناء الطرق الحرارية، كان ولا يزال، يفضل الطرق التجارية الأخرى المستخدمة كالتكسير بالوسيط الكيميائي والألكلة. وتعتبر هدرجة الهيدروكربونات من الأمور المهمة التي تستأثر باهتمام رجال الأبحاث، وعلماء الزيت ..

تشير المصادر والمراجع الى أن هدرجة الزيت ومنتجاته بدأت في عام ١٨٩٧م وذلك في أعقاب الأبحاث والدراسات التي قام بها «سباتير وسنديرينز — Sabatier and Sanderens» والتي بموجبها توصلا الى أن المركبات الهيدروكربونية غير المشبعة يمكن هدرجتها، أي تهذيبها وتحسين مواصفاتها، عن طريق المعادن مثل النيكل الذي وُجِد بأنه عنصر فعال يمكن استعماله في عمليات الهدرجة في حالة السيولة (Liquid phase) أو في حالة البخار «Vapor phase»، وذلك بمساعدة وسيط مناسب كحجر الخفاف أو غيره. وبذلك استطاع علماء الزيت وضع حجر الأساس في صرح عمليات تكرير البترول باستخدام وسائط كيميائية مناسبة.

هذا وقد شارك «ابياتيف — Ipatieff» في مطلع هذا القرن بأبحاثه في مجال هدرجة الزيت حيث قام بدراسة عملية تستهدف تقليل مركبات الكربون العديدة، وذلك عن طريق استعمال الهيدروجين ووسيط كيميائي مساعد كالنيكل تحت ضغط عال.

ان مثل هذه الدراسات والأبحاث العلمية قد دفعت العلماء الى مواصلة البحث عن عناصر أخرى تستخدم كوسائط كيميائية في عمليات التهذيب، فتكوّنت من أجل ذلك مجموعة من رجال الأبحاث لدى جامعة «هيدلبرج» للبحث في إيجاد طريقة فعالة لتمييع الفحم ليعطي وقودا سائلا لاستعماله في المحركات البحرية، وقد توصلت تلك الجماعة من الباحثين الى أنه بالامكان اضافة الهيدروجين الى الفحم بوجود وسيط كيميائي مقاوم للكبريت. وبالفعل، تم تحويل الفحم الى مادة نصف سائلة، وذلك تحت ضغط يتراوح ما بين ١٥٠٠ و ٣٠٠٠ رطل على البوصة المربعة وعلى حرارة تتراوح ما بين ٥٧٢ و ٩٣٢ درجة فرنهايت. وقد قاد هذا العمل الى البحث عن وسيط كيميائي أكثر فعالية، والى العمل على تطوير الطرق والوسائل المختلفة الكفيلة بالحصول على التفاعلات الكيميائية تحت ضغط عال. وقد واصل العلماء دراساتهم وأبحاثهم حتى استطاعوا في النهاية تذليل المصاعب التي اعترضت سبيلهم في هذا المضمار، والتي كان من نتائجها تقليل التكاليف المترتبة على هذه العمليات كلها حتى أصبحت معقولة اقتصاديا بحيث أصبح بالامكان استعمالها على نطاق واسع.

وفي عام ١٩٢٧م بديء بتشغيل أول معمل لتحويل الفحم الحجري (البني اللون) الى بنزين في «ليونا — Leuna» بألمانيا. وقد أعقب ذلك ظهور عدد كبير من الوحدات التجارية في أمريكا قامت ببنائها شركة «ستاندرد أويل أوف نيوجرسي» سابقا، «إكسون» حاليا، وهي احدى الشركات المالكة لأرامكو، وذلك في عامي ١٩٣٠ و ١٩٣١. غير أن ثمة عوامل عديدة اعترضت سبيل البحث في تطوير أساليب الهدرجة وطرقها بصورة موقتة، كان من ضمنها الانخفاض المفاجيء في أسعار الزيت الخام، وعدم جدوى الاستهلاك الهائل من الهيدروجين اللازم لتحويل المواد المتخلفة من عمليات التكرير الى بنزين. ومع ذلك، فقد استعملت معامل الضغط العالي هذه في هدرجة الكيروسين الى وقود النفثا لاستعماله كوقود للطائرات، وكذلك في تصنيع المذيبات أو النفثا التي تحوي نسبة عالية من المركبات العطرية. ومما يذكر في هذا الصدد انه قد تم في الثلاثينات من القرن الحالي تكييف طرق الهدرجة في عمليات كثيرة منها:

• تحويل الزيت الخام الاسفلتي الثقيل المحتوي على نسبة عالية من الكبريت والمواد المتخلفة من عمليات التكرير الى بنزين ومقطرات ذات نسبة منخفضة من الكبريت وخالية من الاسفلت.

• تبديل «Alteration» مقطرات (Distillates) التشحيم ذات النوعية الرديئة «Low-grade» للحصول على كميات كبيرة من زيوت التشحيم ذات نوعية ممتازة من حيث محتواها الكربوني ووزنها النوعي ولزوجتها وتغيّرها بالنسبة لدرجات الحرارة المختلفة.

• نزع الكبريت والأصماغ وتركيز النفتا التي تحوي نسبة عالية من الكبريت.

• تحويل الزيت ذي الغازات البرافينية الى بنزين جيد يحتوي على نسبة ضئيلة من الكبريت وذلك دون أن يترتب على ذلك تولد فحم الكوك نتيجة للتفاعل ..

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن عملية الهدرجة تحت ضغط عال مقداره ٣٠٠٠ رطل على البوصة المربعة، قد حلت مكانها اليوم عملية الألكلة، وان الأجهزة التي كانت تستعمل في عملية الضغط العالي آنفا، قد حوّلت لاستخدامها في أغراض أخرى أو استغني عنها كليّة.

لقد ساعد ظهور عملية التهذيب باستعمال وسيط كيميائي، ولا شك، على ادخال تحسينات جذرية على عمليات معالجة الزيت الخام بالهيدروجين بطرق اقتصادية. كما أن استعمال أسلوب التهذيب بالوسيط الكيميائي ظل في نمو مطرد وخاصة بعد تطور صناعة السيارات ذات الضغط العالي وحاجتها الى بنزين ذي أوكتان عال. ولا زالت مراكز الأبحاث والدراسات تتطلع الى إيجاد وسائط كيميائية مختلفة وجديدة من أجل الحصول على وقود ذي صفات ممتازة يفي بمتطلبات تنامي صناعة المحركات والمكائن.

هذا وقد شهدت السنوات العشرون الماضية، تطورات ملحوظة في حقل الهدرجة تمثلت في ظهور أساليب ووسائل جديدة في عمليات المعالجة بالهيدروجين كان من جرائها أن أفضت الى انتاج أنواع مختلفة من الهيدروكربونات مثل: «البرافينات — Paraffins» و «النفثينات — Naphthenes» و «المركبات العطرية — Aromatics» و «الأوليفينات — Olefins» وغيرها من المركبات ذات «التركيب الجزيئي — Molecular Structure» الكثيرة المتنوعة. وبالاضافة الى اختلاف نسب الهيدروكربونات وتباينها، فان المركبات العضوية كثيرا ما تحتوي على الكبريت، والنيتروجين والأوكسجين وفي بعض الحالات على المعادن. وتوجد هذه المركبات عادة في الزيت الخام، وتدخل في التفاعلات الكيميائية التي قد تحدث.

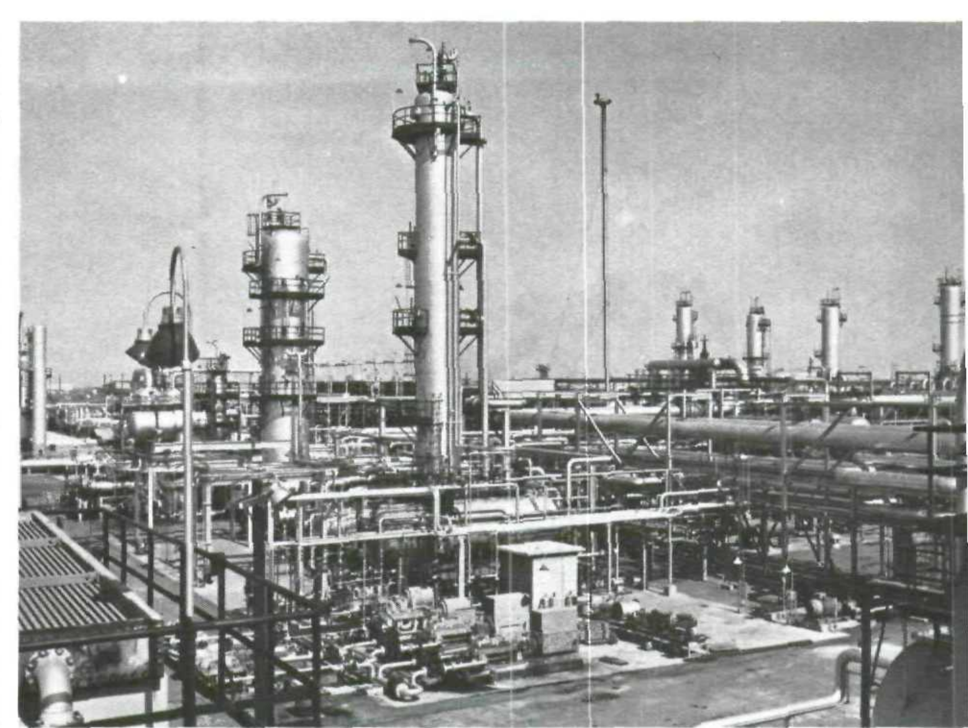
ان الغرض الرئيسي من عملية هدرجة الزيت أو معالجته بالهيدروجين هو تغيير صفاته العامة الى صفات مرغوب فيها لاستعمالات معينة.

ولتغيير أو تحسين صفة من صفات الزيت أو أحد مشتقاته فانه يتحتم ، في بعض الأحيان ، تغيير التركيب الأساسي لهذا المشتق ، وفي بعض الحالات نزع المركبات القليلة الأهمية وغير المرغوب فيها من الخليط . ولكي نستطيع انجاز عملية المعالجة على الوجه المطلوب والاستفادة منها الى أقصى درجات الاستفادة ، فانه ينبغي علينا معرفة التركيب الكيميائي للمركب أو المزيج .

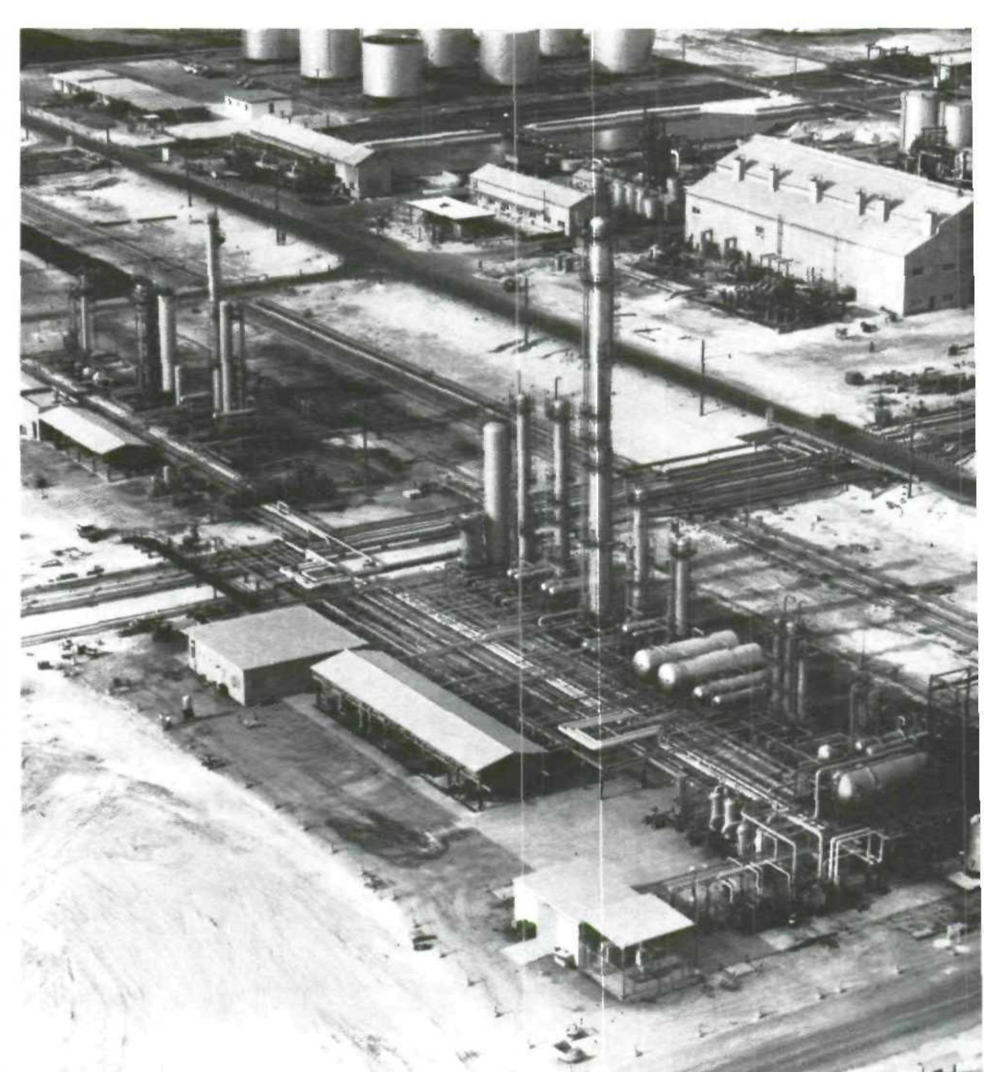
يعتبر الكبريت الذي يحويه الزيت الخام ومنتجاته أو مشتقاته الأخرى ، عنصرا ثانويا ، وهو يوجد عادة على شكل عنصر نقي أو على شكل مركبات كبريتية كثيرة . ومن أكثر هذه المركبات شيوعا ، « كبريتيد الهيدروجين » والكبريتيدات العضوية ، والمركبات الأخرى مثل « الثيوفين والثيوفان ، والمركبتان — Thiophenes, Thiophanes and Mercaptans » وفي عمليات التكسير الحراري أو التكسير بوسيط كيميائي ، تمر المركبات الكبريتية في مراحل وتغييرات عديدة قد يترتب عليها زيادة أو نقصان الوزن الجزيئي . ومما يذكر أن معظم أنواع الزيت الخام في الشرق الأوسط يحتوي على نسب متفاوتة من الكبريت .

تفاعلات الهيدروكربونات الأساسية

ان عملية الهدرجة أو معالجة الزيت ومشتقاته بالهيدروجين تتخللها سلسلة من التفاعلات تشترك فيها جميع المكوّنات الموجودة في المزيج المعقد ، كما ان أي تغيير في الحجم ناجم عن أي تفاعل من هذه التفاعلات مرهون بالوقت ودرجة الحرارة وضغط الهيدروجين المستعمل في هذه التفاعلات . ونستطيع القول هنا أنه باختبار الوسيط الكيميائي المناسب والبيئة المناسبة للتفاعل يمكن للهيدروجين أن يتفاعل بطريقة ما مع كل مكوّنات الزيت الهيدروكربونية على أي درجة حرارة أو تحت أي ضغط . أما عمليات الهدرجة التي تجرى للأهداف الصناعية العملية خارج المختبرات فتتم على درجة حرارة أقصاها ١٠٠٠ درجة فرنهايت وتحت ضغط عال يبلغ معدله حوالي ١٠٠٠٠ رطل على البوصة المربعة . وبوجه عام ، فانه كلما ارتفعت درجات الحرارة ازداد « التكسير الهيدروجيني — Hydrocracking » . والتكسير الهيدروجيني هو عبارة عن مجموعة من التفاعلات الكيميائية التي تشمل « تفليق — Cleavage » الرباط الكربوني مثل عملية تكسير السلسلة الهيدروكربونية للجزيئات « Chain Breaking »



وحدة نزع الكبريت في رأس تنورة ، وهي من المرافق الحيوية التي تلعب دورا في معالجة الزيت الخام ومنتجاته.



ل الألكلة الخاص بانتاج الألكيلات ذات الأوكتان العالي والتي تمزج بالبنزين المهذب هيدروجينيا لصنع وقود الطائرات

أو فتح ثغرة في السلسلة الهيدروكربونية « Ring Opening » لتعطي مجالا للتفاعل الكيميائي. وكذلك فان زيادة الضغط تعطي مجالا أفضل وبيئة أحسن لتكوين الرباط الهيدروجيني - الكربوني بين الجزيئات. ومن أمثلة التفاعلات التي تتم في عمليات الهدرجة ما يلي :

- **التشبّع بالهيدروجين :**

« الحلقات الألوفينية - Olefinic Bonds »

$$RCH_2CH=CHCH_3+H_2 \longrightarrow RCH_2CH_2CH_2CH_3$$

$$\text{(cyclohexene)} + H_2 \longrightarrow \text{(cyclohexane)}$$

- **عملية التكسير الهيدروجيني Hydrocracking**

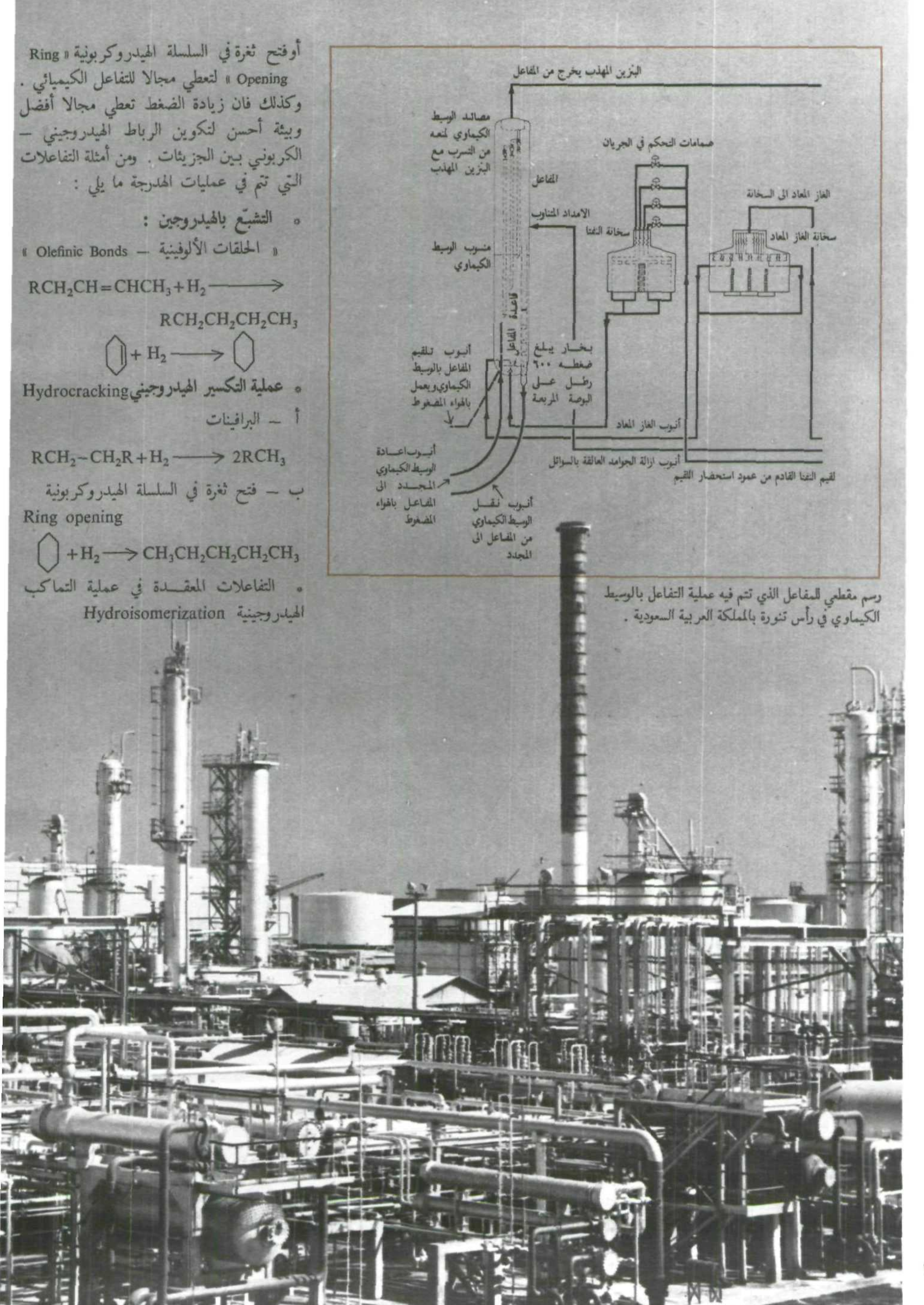
أ - البرافينات

$$RCH_2-CH_2R+H_2 \longrightarrow 2RCH_3$$

ب - فتح ثغرة في السلسلة الهيدروكربونية Ring opening

$$\text{(cyclopentane)} + H_2 \longrightarrow CH_3CH_2CH_2CH_2CH_3$$

- التفاعلات المعقدة في عملية التماكب الهيدروجينية Hydroisomerization



رسم مقطعي للمفاعل الذي تتم فيه عملية التفاعل بالوسيط الكيماوي في رأس تنورة بالمملكة العربية السعودية .



منظر عام لوحدة تركيز النفتا التابعة لمعمل التكرير في رأس تنورة حيث تتم زيادة المواد المتطايرة التي تساعد على الاشتعال .

استعمال الوسيط الكيميائي :

ان اختيار الوسيط الكيميائي « Catalyst » المناسب يعيطنا ولا شك درجة ما من التحكم في عمليات الهدرجة . وفي كثير من الأحيان ، يمكن توجيه التفاعل للحصول على المنتجات المطلوبة . أما أنواع الوسائط الكيميائية في عمليات الهدرجة فتقسم الى ثلاثة أقسام :

المعادن : مثل البلاتين ، والبلاديوم « Palladium » ، والنيكل ، وهي تعتبر مفيدة جدا في عمليات الهدرجة التي تتم على درجات الحرارة المنخفضة ، وتنحصر استعمالات هذه المعادن كوسيط كيميائي ، في عمليات تشبّع المكونات « الألوفينية والعطرية — Olefins and Aromatics »

أكاسيد وكبريتيدات المعادن : التي تعتمد على مواد غير حامضة ، مثل مركبات الألومينوم ، والماغنسيوم ، وتستعمل عادة للحصول على عمليات مشبعة بالهيدروجين .

أكاسيد وكبريتيدات المعادن : التي تعتمد على مواد حامضة ، مثل السيليكا — ألومينوم ، والسيليكا — ماغنيسيوم ، والطين وغيرها ، وهي تستعمل بكثرة في عمليات البلمرة الهيدروجينية أو التكسير الهيدروجيني .

ومما هو ثابت تاريخيا أن استعمال المحركات ذات الاحتراق الداخلي قد أدى الى ضرورة انتاج عدد من مشتقات الزيت الخفيفة يفوق ما يوجد طبيعيا في الزيت الخام. وقد تم هذا بالفعل عن طريق عمليات التكسير. فهنالك، كما ذكرنا آنفا، «التكسير الحراري — Thermal Cracking» وفيه يتم اخضاع الهيدروكربونات الى درجات حرارة مرتفعة نسبيا لفترة من الوقت، فتنقسم الجزيئات الكبيرة لأنواع الزيوت الثقيلة الى جزيئات أصغر كجزيئات البنزين وزيت الغاز، مثلا.

أما التكسير بالهيدروجين باستخدام الوسيط الكيميائي فهو من بين طرق الهدرجة المتبقية في تصنيع مشتقات الزيت، وفي أثناء هذه العملية، يقوم الوسيط الكيميائي بتغيير سرعة التفاعل دون أن يطرأ عليه أي تغيير. أما في حال حدوث سلسلة متشابكة من التفاعلات الكيميائية في آن واحد فقد يصبح بامكان وسيط كيميائي معين زيادة سرعة بعض هذه التفاعلات دون البعض الآخر. ومن ميزات طريقة التكسير بالهيدروجين انها تساعد على انتاج كميات كبيرة من البنزين أو زيت الغاز الممتازين، وعلى تكسير اللقيم تكسيرا كاملا بحيث يحول دون تكوّن الفحم على الوسيط نفسه. الا أن تكاليفها الانشائية والتشغيلية الأولية مرتفعة.

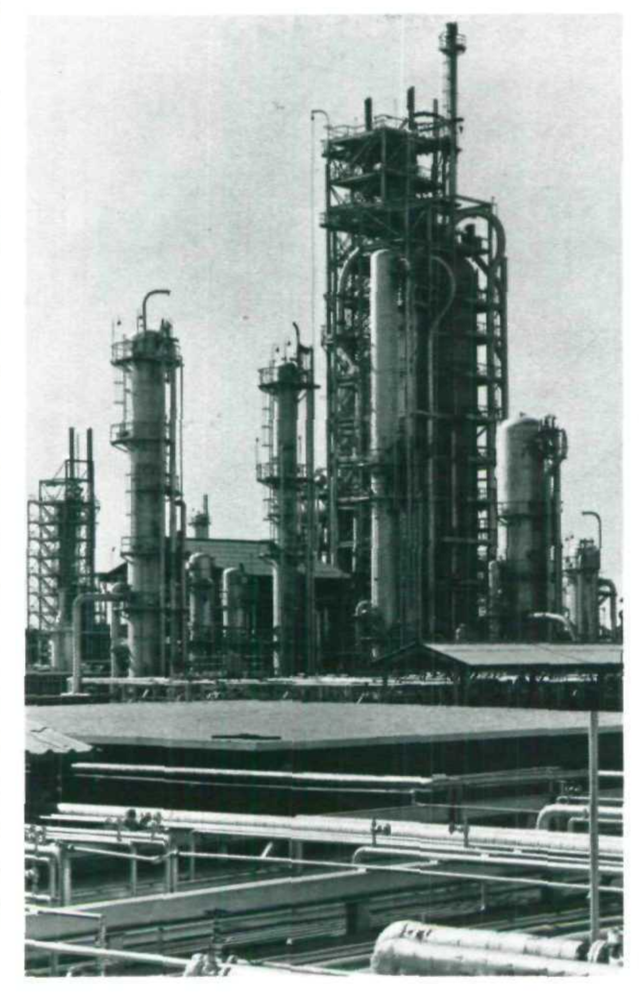
و «التهذيب — Reforming»، عملية مزدوجة.. فهي تجزئة من ناحية، واعادة تركيب الجزيئات من ناحية أخرى، وتتم هذه العملية إما بالحرارة وهو ما يعرف بـ «التهذيب الحراري — Thermal Reforming»، أو بالاستعانة بوسيط كيميائي وهو ما يعرف بـ «التهذيب بالوسيط الكيميائي — Catalytic Reforming» مع الأخذ بعين الاعتبار أن الغاية الأساسية من فكرة التهذيب بالوسيط الكيميائي هو زيادة قدرة منتجات البترول كالبنزين مثلا، على الاشتعال ورفع درجة الأوكتان فيه.. ولذلك يعتبر الوسيط الكيميائي بمثابة عامل مساعد لإحداث التفاعل الكيميائي دون أن يطرأ عليه أي تغيير لدى اكمال عملية التفاعل هذه.

ومن بين طرق التهذيب التي تعتمد الوسيط الكيميائي والتي يجرى استخدامها في معامل التكرير، طريقة «التهذيب البلاتيني — Platforming» أي تهذيب جزيئات الزيت الخام باستخدام وسيط كيميائي مادته الأساسية البلاتين.. وقد استحدثت هذه الطريقة عام ١٩٤٩، وهي تعتمد وسيطاً كيميائيا يتألف من مركب ناقل لأوكسيد «الألومينا — Alumina» ويحتوي على نسبة من البلاتين تتراوح بين ٠,٤ و ٠,٧٥ في المائة بالوزن، وذلك وفقا للنوع المراد انتاجه.. ويضاف الى هذا المركب نسب معينة من الكلور أو الفلور أو كلاهما معا، كمواد منشطة..

ومن جراء عملية تهذيب النفتا الثقيلة بالوسيط الكيميائي، ينتج صنف غني بالمركبات العطرية والبارافينية المتماكبة، أي عناصر ذات قدرة عالية على الاشتعال.. وهنا يمكن تجديد الوسيط في موضعه الى أن تقل فعاليته فيسحب عندئذ ويستبدل، كما يمكن في الوقت نفسه استخلاص البلاتين من الوسيط المستهلك.. وهذه الطريقة يمكن اتباعها في صنع عناصر بنزين السيارات الممتاز وفي انتاج المهذبات البلاتينية الغنية بالعطريات التي يمكن استخدامها في انتاج بنزين الطائرات، أو كمصدر العطريات في صناعة البتروكيماويات.. ويتولد عن هذه العملية عادة كمية أكبر من الهيدروجين تستعمل في عملية انتزاع الكبريت بالهيدروجين وعمليات الهدرجة «التكسير» الأخرى.. وتجرى هذه العملية في جو هيدروجيني يحول دون تكوّن فحم الكوك على الوسيط الكيميائي ويبقيه نشطا..

بالاضافة الى البلاتين، هنالك وسائط كيميائية أخرى تستخدم في عملية تهذيب المنتجات البترولية، من بينها «أوكسيد المولبدينوم — Molybdenum» الذي تستخدمه شركة الزيت العربية الأمريكية «أرامكو» في وحدة التهذيب الهيدروجيني التابعة لمعمل التكرير في رأس تنورة.. ويتألف هذا الوسيط من جزيئات الألومينيوم المشبعة بنسبة ١٠ في المائة من أوكسيد المولبدينوم.. وهو يمتاز بفعالية كبيرة بحيث لا يحتاج الى استبداله دائما، وانما يضاف اليه مزيد منه للتعويض عما يفقده.. وتتم عملية التهذيب بهذا الوسيط بدخول النفتا الى المفاعل على حرارة مقدارها ١٠٠٠ درجة فرنهايت وبضغط مقداره ٢٠٠ رطل على البوصة المربعة.. وفي قعر المفاعل تمزج النفتا بغاز الهيدروجين الوارد من وحدة استخلاص المنتجات على حرارة مقدارها ١٢٠٠ درجة فرنهايت، ثم يجري التفاعل مع الوسيط الكيميائي الذي تبلغ حرارته ٩٢٥ درجة فرنهايت، والذي يتولى بدوره احداث تفاعل كيميائي في اللقيم الممزوج بغاز الهيدروجين في برج التفاعل وذلك لانجاز عملية التهذيب.. أما غاز الهيدرجين فمهمته تزويد المفاعل بالحرارة والتقليل من تراكم فحم الكوك على جزيئات الوسيط.. وتبلغ نسبة الأوكتان في البنزين بهذه العملية ٩٥ درجة أو أكثر ■

فتحي أحمد يحيى — الظهران



جانب من وحدة التهذيب الهيدروجيني في رأس تنورة التي يجري فيها معالجة البنزين بالوسيط الكيماوي ورفع درجة الأوكتان فيه.

تصوير: شيخ أمين وسعيد الغامدي

عثرات الكتّاب

بقلم الامير نديم آل ناصر الدين

أجمع علماء العربية، على أن مقوّمات اللسان العربي أربع: اللغة والنحو والبيان والأدب، فاذا فقد اللسان هذه المقومات أو بعضها، زايلت الكلام روعة البلاغة والفصاحة والجزالة، وامحى عنه جمال الديباجة وطابع السمو، فلا قيمة للكلام اذا لم تشد بعضه الى بعض لغة ونحو، ولم يصقله بيان، ولم يمزه أدب.

أما سواد كتّاب العصر فانهم لا يهتمون بمراعاة هذه المقوّمات، ويرون أن الكلام يكفي أن يعبّر عن مقصد الكاتب، وان كان لغة ركيكة متداعية.

انه من المؤلم حقا أن تنحط «الضاد» الى هذا الدرك، وهي عنوان الأمة العربية وآية اعتزازها، فحفاظا على أصالة هذه اللغة الحية ومقوماتها، نرى أنه من الضروري بمكان أن ننبه الى عثرات الكتّاب، في هذه العجالة لعلّ فيها من الفائدة المتوخاة ما يهيب بالمنشئين أن يجنبوا أقلامهم العثرات، ويصونوها من المزالق.

من عثرات الكتّاب:

قولهم: «الوطنية الحقة» والصواب «الوطنية الحق». قال علماء اللغة أن المصدر اذا نعت به وجب أن يبقى على حاله من الافراد والتذكير فيقال «رجل عدل» «وامرأة عدل» و «رجلان عدل» و «امرأتان عدل» و «رجال عدل» و «نساء عدل».

وقولهم: «لم أعد قادرا، لم يعد لي صبر». جاء في «البينات» ما يلي: اذا أردت «عاد» من العود كان المعنى في الأول «لم أرجع قادرا» وفي الثاني «لم يرجع لي صبر»، وان أردت «عاد» بمعنى «صار» كان المعنى في الأول «لم أصر قادرا» وفي الثاني «لم يصر لي صبر» وكلا الوجهين غير المقصود، فالصواب أن يقال في الأول «عدت غير قادر» وفي الثاني «لم يبق لي صبر».

وقولهم: «حرمني من الشي» والصواب «حرمني الشيء» بحذف حرف الجر لأن حرم يتعدى بنفسه.

وقولهم: «فلان تام الرجولة» والصواب «تام الرجولية» لأن الرجولة لم ترد في كلام الفصحاء.

وقولهم: «أغرى زيد عمرا على المال» والصواب «أغرى زيد عمرا بالمال» أي أولعه به فهو يتعدى «بالباء» لا «بعلى».

وقولهم: «تفادى زيد كذا» والصواب «تفادى زيد من كذا» أي تحاماه وتجنبه فهو يتعدى «بمن» الجارة لا بنفسه.

وقولهم: «سلمى انسانة طيبة» على وهم أنه يصح تأنيث «انسان» والصواب أن «انسان» يجري على المذكر والمؤنث، فيقال: «زيد انسان طيب»، و «سلمى انسان طيب».

وقولهم: «هند عضوة في جمعية المرأة» على وهم أنه يصح تأنيث «عضو» والصواب أن «عضو» يجري على المذكر والمؤنث، فيقال «زيد عضو في جمعية الرجل» و «هند عضو في جمعية المرأة».

وقولهم: «دعاوة» في مكان «دعوة». ان هذا خطأ محض، فلم يرد غير «دعوة» على لسان فصحاء العرب المتقدمين والمتأخرين. أما من باب القياس فيجوز القول: دعا يدعو «دعاية» كما يجوز القول: شكا يشكو «شكاية» ولكن العرب خالفوا القياس في ألفاظ كثيرة.

ومما خالف العرب فيه القياس صيغة اسم الفاعل من هم فيقولون: همه الأمر يهمه فهو «مهم» ولم يقولوا: «هام». على أن السواد الأكبر من كتاب العصر يأبون الا القول «الحدث الهام» و «النبأ الهام» و «المشكلة الهامة» الخ ...

وقولهم: «ولم تؤكد قولها حتى الآن» ومن الصواب القول: «ولما تؤكد قولها»، لأن «لما» تربط بنفيها الماضي بالحاضر.

ويخطىء أولئك الذين يستعملون «حتى» الجارة مكان «الى» فيقولون: «لبثت حتى الآن» والصحيح أن يقولوا: «لبثت الى الآن». أما «حتى» فانها لا تجر الا الآخر أو المتعلق بالآخر، في مثل قولك: «سهرت حتى آخر الليل» و «أكلت السمكة حتى رأسها».

وفي عبارة «أكلت السمكة حتى رأسها» ثلاثة أوجه. الأول رفع رأسها والثاني نصبه، والثالث جره، فمن رفع جعل «حتى» ابتدائية، ومن نصب جعل «حتى» عاطفة، ومن خفض جعل «حتى» جارة.

وقولهم: «سافر الملك مع حاشيته» ومن الصواب القول: «سافر الملك ومعه حاشيته». فلا يجوز أن يقدم التابع، وهو الحاشية، على المتبوع، وهو الملك.

وقولهم: «نزل زيد بين ظهرانينا» بكسر النون الأولى، وهو خطأ، والصواب فتحها، لأن هذه اللفظة مثنى، والمراد أنه مقيم بيننا على سبيل الاستقواء بنا والاستناد الينا، فكأن المعنى أنه محاط بظهرين من قدامه، وظهرين من خلفه، فلا خوف عليه من العدوان.

الصفة تنوب عن الاسم:

من شروط البلاغة أن تنوب الصفة عن الاسم، في أمكنة كثيرة. وعلى هذا كان قولك «رأيت بخيلا» و «أكرمت عالما» و «أحببت عاقلا» أبلغ من قولك: «رأيت رجلا بخيلا» و «أكرمت رجلا عالما» و «أحببت رجلا عاقلا».

والشعراء الفحول، من العصر الجاهلي الى عصرنا هذا، يجرون على هذا السنن، في جعل الصفة مكان الاسم، حيث يجدون

الاستغناء عن الاسم بالصفة من مقتضيات البلاغة وضرورات القافية .

قال امرؤ القيس :

تصد وتبدي عــن أسيل وتتقــي
بنـاظـرة من وحش وجـرة مطفل

« وتبدي عن اسيل » أصلها « وتبدي عن خد اسيل » .

وقال أبو الطيب المتنبي :

ومــا أنا الا سمهري حملتــه
فزيــن معروضا وراع مسددا

« وما أنا الا سمهري » أصلها « وما أنا الا رمح سمهري ورمح « سمهري » منسوب الى « سمهر » كما أن رمح « رديني » منسوب الى « ردينة » ، و « ردينة » هي زوج « سمهر » ، وكلاهما من ديار هجر ، عرفا باتقان تقويم الرماح ، فنسبت اليهما ، ثم حذف الاسم وجرت الصفة مجراه .

وقال أبو عبادة البحتري :

والخيل تصهل والفوارس تـدعــي
والبيض تلمع والأسنة تـزهـــر

« والبيض تلمع » أصلها « والسيوف البيض » .

وقال الأمير أمين آل ناصر الدين :

أمـا والبيض راعفـة نجيعـًا
وسمر الخط تخـترق الضلوعا

« أما والبيض » أصلها « أما والسيوف البيض » و « سمر الخط » أصلها « و « رماح الخط السمر »

ومن عثرات الكتاب قولهم : « المحاضرة » لكل ما يلقى من الكلام في المنتديات والمحافل وهي لا تعطي المعنى المقصود ، والموافق أن يسموا الكلام في هذا المقام « الخطاب » أو « الحديث » أو « الخطبة » بضم الخاء . أما « المحاضرة » لغة ، فهي أن يجيب الواحد صاحبه بما يحضره من الجواب ، ويقال « فلان حسن المحاضرة » أي « حسن المجالسة

وقولهم : « أساتذة » و « تلامذة » في جمع أستاذ وتلميذ والصواب أن يجمعا على « أساتيذ وتلاميذ » وهي القاعدة الصحيحة التي اتبعها ألو التحقيق من علماء اللغة .

وقولهم : « فلان شكل الوزارة » على وهم أن « شكل » بمعنى « ألف » وهو خطأ محض وقد ورد في المعاجم عن مادة « شكل » ما يلي :

يقال شكل الأمر يشكل شكلا : « التبس » وهو لازم ، ويقال « شكل الكتاب « قيده بعلامات الاعراب » وهو متعد ، ويقال « شكل الدابة » : « شد قوائمها بحبل وهو متعد » .

ويأتي « أشكل » و « شكل » بمعنى « شكل » والشكل يطلق على الحركات وتوابعها كالتشديد ونحوه ، ومن معانيه « الشبه » و « المثل » و « النظير » و « الموافق » ويجمع على « اشكال » و « شكول » .

قال المتنبي :

ليالي بعد الظاعنين شكــول
طوال وليـل العاشقين طويــل

ويقصد الشاعر بـ « شكول » « أشباه » .

أما قولهم : « شكل فــلان الوزارة » و « تشكيل الوزارة » و « هذا الأمر يشكل خطرا » الخ ... فهو من الخطأ الشائع على ألسنة الكتاب ، خاصتهم وعامتهم ، ولا يستند الى حقيقة أو شبه حقيقة ، ومن الصواب القول : « ألف فلان مجلس الوزراء » و « تأليف مجلس الوزراء » و « هذا الأمر يؤلف خطرا » ... الخ .

وقولهم : « فوضه الأمر » وهو خطأ ، والصواب أن يقال « فوض اليه الأمر » ، لأن « فوض » يتعدى بـ « الى » ولم يورده فصحاء العرب متعديا بنفسه .

وقولهم : « برر له عمله » والصواب أن يقال : « سوغ له عمله » فلفظة « برر »

حوشية اصطنعها المحامون في لغتهم الخاصة .. كما اصطنعوا غيرها من الألفاظ والتعابير التي لا معنى لها في اللغة على الاطلاق ، وأخذها عنهم فريق من كتاب العصر ، دون تحقيق .

وقولهم : « لن يعود في وقت قريب جدا » ان هذه الجملة مضطربة الاداء سقيمة التعبير وكان على الكاتب أن يقول : « لا يعود في العاجل » .

وقولهم : « أجريت مناقلة في دوائر الحكومة » ، لست أدري كيف سوغوا لأنفسهم أن يضعوا « مناقلة » موضع « نقل » ، ففي معاجم اللغة « نقل » الشيء ينقله نقلا — حوله من موضع الى موضع وهذا ما ينطبق على المستخدمين الذين ينقلون من دائرة الى أخرى .

أما « ناقل » فيقال : « ناقل الفرس مناقلة ونقالا » أسرع نقل القوائم ، أو سار بين العدو والخبب ، أو ألقى نعله على غير حجر لحسن نقله في الحجارة .

ويقال : « ناقلته الحديث » أي نقلت اليه ما عندي منه ، ونقل الي ما عنده وجادلته .

وقولهم : « لا يجيزه البعض » لا يجيز علماء اللغة على الاطلاق أن تدخل « ال التعريف » على « بعض » و « كل » و « غير » وفي كتاب « دقائق العربية » كفاية لمن يريد التوسع في حقيقة هذه الألفاظ .

وقولهم : « يتساءل القارىء » وهو خطأ فاحش ، لأن « تساءل » من الأفعال التي تقتضي المشاركة ، فيقال « تساءل زيد وعمرو » أي سأل أحدهما الآخر ويصح أن يقال « ساءل زيد نفسه » .

وقولهم : « سنباشر بكذا » وصوابه « سنباشر كذا » بغير حرف الجر ، لأن « باشر » من الأفعال التي تتعدى بنفسها .

وقولهم : « اهتدى بواسطة قراءة كلام الله » ، ان من يستعمل « واسطة » بدل « الباء » أو « في » يرتكب خطأ فاحشا ، ومن الصواب أن يقال : « اهتدى بقراءة كلام الله »

وقولهم : « هل أن الرجل ثابت في موقفه ؟ ان هذا التركيب خطأ محض ، لأن « هل » لا يجوز أن تدخل على « أن » التوكيدية فلا يقال : «هل أن زيدا قائم » .

وكذلك لا يصح توكيد ما ليس معلوما ، فلا يجوز قولهم : « لست أدري أصادق زيد أم أنه كاذب » فالواجب حذف « أن » التوكيدية من الجملة وأن يقال : « أصادق زيد أم كاذب ؟ » .

وقولهم : « عاش التاريخ الحديث » ، و « عاش حفلات العيد » الى آخر ما هنالك . أنهم يجعلون فعل « عاش » متعديا على الرغم من أنف العربية .. وهذا الفعل لازم لا يقبل التعدية على الاطلاق .

قالوا : « عاش الرجل » أي « صار ذا حياة » فهو يعيش عيشا ومعاشا ومعيشة وعيشة وعائش وهو لازم ! ..

و « أعاشه » أي جعله ذا حياة ، فهو يعيشه اعاشةومعيش بضم الميم وكسر العين ومعاش بضم الميم وفتح العين ، وهو متعد ! .

و « عيشه » أي « جعله ذا حياة » فهو يعيشه تعييشا . ومعيش بضم الميم وكسر الياء المشددة ومعيش بضم الميم وفتح الياء المشددة ، وهو متعد .

و « عايشه » أي « عاش معه » فهو يعايشه معايشة ومعايش بضم الميم وكسر الياء ومعايش بضم الميم وفتح الياء ، وهو متعد .

و « تعيش الرجل » أي « تكلف أسباب المعيشة » فهو يتعيش تعيشا ومتعيش بضم الميم وكسر الياء المشددة ، وهو لازم .

و « تعايشوا بألفة ومودة » أي « عاشوا مجتمعين على ألفة ومودة » فهم يتعايشون تعايشا ومتعايشون ، وهو لازم ومن أفعال المشاركة .

وتأتي « المعيشة » اسما لما يعايش به من المطعم والمشرب ، ولما يكسب أو يعاش فيه من مكان وزمان ، وتجمع على « معايش » ..

وقولهم : « اسهم زيد في عمل عمرو » على وهم أن زيدا شارك عمرا في عمله ، وهو خطأ .

أما كيفية استعمال « أسهم » فهكذا : يقال : أسهم زيد لعمرو في عمله أي جعل زيد لعمرو سهما أي نصيبا في عمله .

وقولهم : تلقيت هذه البطاقة فتأملت فيها مثنى وثلاثا ورباعا ... الخ

لقد ظن الكاتب أن « احاد ومثنى أو ثناء الى عشار » هي أسماء مصروفة فأورد « مثنى وثلاث ورباع » منونة في حين أن هذه الأسماء من « آحاد الى عشار » هي غير مصروفة ، والمانع من الصرف الصفة والعدل لان « احاد » معدول عن « واحد واحد » أو « واحدة واحدة » و « ثناء أو مثنى » معدول عن « اثنين اثنين » أو « اثنتين اثنتين » وهكذا « ثلاث ورباع الى عشار » . وأكثر هذه الأسماء العددية استعمالا من « احاد الى رباع » . أما بقية هذه الأسماء فقليلة الاستعمال يقال : « جاء الرجال آحاد » أي « واحدا واحدا » و « جاءت النساء آحاد » أي « واحدة واحدة » و « جاء الرجال ثناء أو مثنى » أي « اثنين اثنين » و « جاءت النساء ثناء أو مثنى » أي « اثنتين اثنتين » .

وقولهم : طالما أن زيدا غير موجود فلا يمكنكم أن تفعلوا (كذا) . لا يجوز على الاطلاق أن تستعمل « طالما » في مكان « ما دام » بل أوجب علماء اللغة أن تسبق « طالما الفعل الماضي دون سواه في مثل قولك : طالما تبادلنا رسائل الود » و « طالما تذكرنا ملاعب الطفولة » الى غير ذلك .

وقولهم : « ان زيدا لو تمكن من تحقيق مثل هذا المشروع فيخدم الوطن » . ومن الصواب القول : « ان زيدا لو تمكن من تحقيق مثل هذا المشروع لخدم الوطن » لأن القاعدة الصحيحة أن يأتي الفعل الجوابي ماضيا مقرونا بلام التأكيد ، فالفاء ليس هنا مكانها ! .

وقولهم : « لا يمكن لي أن أفعل كذا » ومن الصواب القول : « لا يمكنني أن أفعل كذا » لأن « أمكن » يتعدى بنفسه لا بحرف الجر ! .

وقولهم : « استلم زيد الكتاب » ، ومن الصواب القول « تسلم زيد الكتاب » لان « استلم » معناه « لمس » في مثل قولك : « استلم الحجر الأسود » أي لمسه ! .

وقولهم : « استبدلت الكتاب بغيره » والصواب أن يقال : « استبدلت بالكتاب غيره » لأن « الباء » يجب أن تقترن بالشيء المتروك ! .

وقولهم : جاء مدير عام وزارة الأنباء » ، و « مدير عام وزارة الداخلية ، ومدير عام وزارة الخارجية ، ومدير عام وزارة المالية ، ومدير عام وزارة التربية الخ .. » والصواب أن يقال : « مدير وزارة الأنباء العام » ، أو « المدير العام لوزارة الأنباء » ، وهكذا دواليك.

وقولهم : « تحدى زيد عمرا » اذا انتصب لخصومته ، على أن « تحدى » لا تأتي بهذا المعنى ، وانما تأتي بمعنى « باری » فتقول : (تحدى زيد عمرا) اذا باراه في فعله أي نازعه الغلبة ، وتأتي بمعنى « تعمد » على أنها في كلا الموضعين لا تنطبق على ما يذهبون اليه ، ولو قالوا : « تصدى له » لكانوا أقرب الى الصواب

■

نديم آل ناصر الدين — بيروت

المملكة العربية السعودية
الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية
كلية اللغة العربية بالرياض

شعر الدعوة الإسلامية

في عهد النبوة والخلفاء الراشدين

جمعه ، وحققه ، ووثقه ، وشرح غريبه
وترجم لأعلامه وصنع فهارسه
عبد الله بن حامد الحامد

بإشراف
الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا

بحث قدم لنيل الشهادة العالية من كلية
اللغة العربية بالرياض ونال درجة الامتياز
من مطبوعات الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية

شعر الدعوة الإسلامية

مَوْسُوعَة أدَبْ الدَّعْوَة الإسْلاميّة في خَمسَة عَشَر مُجَلّدًا

تأليف الاستاذ عبد الله بن حامد الحامد

عرض وتحليل الاستاذ علي حافظ

ربّما لم يخطر على البال ، أن يتصدى أحد لجمع شعر الدعوة الاسلامية فيقدم للعالم الاسلامي ، بل وللأدب العالمي ، أدبا اسلاميا بددته الأيام وبعثرته بين طيات الدواوين وكتب اللغة والأدب والتاريخ ... فقد انصرف الناس عن هذا الى دراسات أخرى في الأدب العربي كالمديح والهجاء ، والغزل ، والوصف ، والحماسة وغير ذلك مما راجت سوقه ، وهفت اليه النفوس .

ولكن البعث الاسلامي الذي شمل بلادنا في هذه الأيام وتغلغل في كل أوصالها ، لفت أنظار رجال العلم والبحث والتحقيق ، والتخصص لمثل هذه الخطوات الأدبية الاسلامية المهمة التي نحن أحوج ما نكون لها في هذا العصر .

واشعاع هذا البعث جعل الرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية تكتشف في طلابها الرغبة الملحة لنزول هذا الميدان ، فشجعتها وأوجدت مادة البحوث في كلية اللغة العربية في جميع سنواتها فاستقبل الطلاب والمدرسون هذه المادة بالترحيب ، فكان من آثار هذا الترحيب ميلاد هذا الكتاب « شعر الدعوة الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين » جمعه ، وحققه ، ووثقه ، وشرح غريبه الطالب عبد الله بن حامد الحامد باشراف الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا .

مقدّمة الكتاب

قدم الكتاب الدكتور رأفت ، وقال في المقدمة أنه لا بد للمملكة العربية السعودية ومؤسساتها العلمية أن تعمل على جمع شعر الدعوة الاسلامية خصوصا بعد أن أقرت في مناهجها الحديثة دراسة « أدب الدعوة الاسلامية » .. أقرتها في المراحل الثانوية ، من تعليم البنين والبنات ، وفي المعاهد العلمية ، ودار التوحيد ، والجامعة الاسلامية ، وكلية التربية للبنات ، وكلية اللغة العربية في الرياض . وقال أيضا : وكأن الله سبحانه وتعالى ادّخر هذا الصنيع الكبير لكلية اللغة العربية في الرياض . وأن عميد الكلية الشيخ عبدالله التركي قد رحب بفكرة تخصيص بحوث طلاب السنة الرابعة لجمع أدب الدعوة الاسلامية .

وبعدئذ قسم الدكتور رأفت أدب الدعوة الاسلامية الى شطرين : الشعر والنثر ، ثم قسم كل شطر الى عصور ، أو فترات زمنية ، أو أقاليم ، أو أحداث كبرى كالحروب الصليبية وغزو التتار .

وجند لهذا العمل الكبير نحو ١٠٠ طالب من طلاب السنة الرابعة وجعلهم في نحو ٢٥ مجموعة وأناط بكل مجموعة نصيبها من العمل الكبير وأوضح لهم الطريق ورسم منهج العمل . فأكب الطلبة على البحث حوالي سبعة شهور يواصلون كلال الليل بكلال النهار ، ولم يدخروا وسعا ولا تركوا مصدرا تصل اليه أيديهم الا نبشوه حتى اجتمع لهم من أدب الدعوة الاسلامية ديوانان ، ديوان للشعر وديوان للنثر وان هذين الديوانين ستتألف منهمـا « موسوعة أدب الدعوة الاسلامية في ١٥ مجلدا » ، منها هذا الكتاب الذي نحن بصدده « شعر الدعوة الاسلامية » .

ويقول الدكتور رأفت : أنه لا يريد أن يطري أو يثني على المؤلف ، وأنه يترك تقويمه وتقديره والحكم عليه للقراء وحدهم. ولكنه يشهد بأن المؤلف عبد الله الحامد قد أقبل على عمله بصدق ، وبذل كل ما في نفسه بسخاء ، ولبس ثوب الباحث الذي يقدر المسؤولية وهنأه على نجاحه وهنأ المؤسسة التي أنجبته .

قال هذا الدكتور عبد الرحمن رأفت في المقدمة .. وفيما أراه أن شهادة الدكتور تلك هي أفضل من الاطراء والثناء ، وأغنى مادة ، وأبهج منظرا ، وأشرق نورا .

وللدكتور عبد الرحمن رأفت الفضل في التقسيم العلمي الدقيق والتخطيط الفني المنتظم اللذين قدمهما للطلاب تمهيدا للبحوث .. فقد كان تقسيما وتخطيطا شد من عزائم الطلاب في بحوثهم وشق لهم طرق البحث والوصول الى الهدف .

دقة المؤلف في البحث

كان المؤلف دقيقا في بحثه ، فقد قال في منهجه التأليفي « منهج الجمع والتحقيق » قال : « بأنه عنون لكل قطعة ثم مهد لها ببيان مناسبة النظم ، وبايضاح مشكلها ، وترجمة قائلها ، مع الاشارة للمصدر .. وذكر الروايات ان كانت هناك روايات لبيت أو كلمة فيه » . وسار على هذا المنهج القويم .

وقال ايضا في المنهج : بأنه اذا وجد في الرواية التي يختارها شيئا من القلق والاضطراب عمل على اصلاحه اما باختيار رواية أخرى ، واما باللجوء الى الاجتهاد .. وهذا شأن الباحثين المحققين ..

عبد الله الزبعري

وفي صحيفة (٩٥) أورد المؤلف قطعة شعرية لعبد الله بن الزبعري مطلعها :

سرت الهموم بمنزل السهـم — اذ كن بين الجلـد والعظـم
ندما على ما كـان مـن زلـل — اذ كنت في فتن مـن الاثـم
حيران يعمه في ضـلالتـه — مستوردا لشرائـع الظلـم
فاليوم آمـن بعـد قسوتـه — عظمي وآمـن بعـده لحمي
بمحمـد وبمـا يجيء بـه — من سنة البرهـان والحـكـم

وقال وهو يتحدث عن الغريب في المقطوعة : « يبدو أن سلامة بلاغة البيت الرابع في المقطوعة تقتضي أن تكون العبارة و (آمن قبله لحمي) مثلما رأى استاذنا الدكتور عبد الرحمن الباشا ، وذلك لأن الشيء الذي ينفذ الى الجسم يصيب اللحم أولا فاذا اشتد نفاذه أصاب العظم فلعل « بعده » جاءت في تحريف الرواة » .

ومع احترامي للدكتور العلامة وللمؤلف فاني لا أرى ما رأياه لما يلي :

- ان المؤلف لم يورد رواية أخرى للبيت أو للكلمة والذي وصل الينا هو « وآمن بعده لحمي » وقد قالوا من حفظ حجة على من لم يحفظ .
- وأنه لا يوجد تقارب في الرسم حتى يحرفه الرواة
- ثم ما الذي يمنعنا من أن نفهم من قصد الشاعر أن بعد قسوة الهموم والضلال والظلم اقتحم الايمان جسمه بعنف وقوة وسرعة فنفذ الى العظم ولعنف الاقتحام وسرعته لم يحس به لحمه الا بعد أن وصل الى العظم .

قال أبو الطيب المتنبي :

راميـات بأسهم ريشها الهب — تشق القلـوب قبـل الجلود

وقال كثيّر :

رمتني بسهم ريشه الكحل لم يصب — ظواهر جلدي وهو في القلب جارح

وقال جميل :

وما صائب من نابل قذفت به — يـد وممر العقدتين وثيـق
باوشك قتلا منك يوم رميتني — نوافـذ لم تعلم لهـن خروق

هذه مجرد وجهة نظر ، والمؤلف والدكتور لم يجزما بذلك الرأي بل قالا : ولعل « بعده » جاءت من تحريف الرواة :

الترجمة

ولقد صادف عند تقليب الكتاب أن وقع نظري على مقطوعة الزبعري تلك .. فلم أجد في شروحها ترجمة الشاعر الزبعري ، فقلت ربما أن المؤلف ترجم لـه في مقطوعة أخرى فرجعت الى فهرست الشعراء في الكتاب فلم أجد ذكر الزبعري الا في هذه المقطوعة التي رقمها (٦٩) وفي مقطوعة أخرى رقمها (٦٨) وفي كليهما لم يترجم المؤلف للشاعر ، مع ما لـه من ماض في محاربة الرسول والاسلام في الجاهلية ومدح الرسول ونصرة الاسلام بعد أن أسلم .

وكدت أعتقد أن المؤلف خرج عن منهجه الذي التزم بـه ولكن مثل الزبعري لا يمكن أن لا يترجم لـه المؤلف فأخذت أقاب صفحات الكتاب لعلي أجد له مقطوعة أخرى فيها الترجمة ، وسرعان ما وجدت لـه مقطوعة ثالثة رقمها (٦٧) ترجم لـه فيها المؤلف .. فيظهر أن سهوا وقع في تنظيم الفهرس .

كذلك مررت ببيت الشاعر راشد بن عبد ربه السلمي :

أرب يبول الثعلبان بـرأسـه ؟ — لقد ذل من بالت عليه الثعالب

فأردت أن أعرف هل دوّن لـه المؤلف شعرا غير هذا البيت فرجعت لفهرست الشعراء فوجدت اسم راشد في رقم ١٦ ورقم ٣٧٨ ثم رجعت لرقم ١٦ فوجدته على البيت (أربّ يبول الثعلبان الخ) أما المقطوعة رقم ٣٧٨ فهي في موضوع الخوف من الله لإمرأة نجدية ومطلعها :

تطاول هذا الليـل تسري كواكبه — وأرقني ان لا ضجيع ألاعبـه
يسر به من كان يلهـو بقربـه — لطيف الحشا لا تجتويه أقاربـه
فوالله لولا الله لا شيء غـيره — لينقض من هذا السرير جوانبـه
ولكنني أخشى رقيبا موكـلا — بأنفسنا لا يغتر الدهـر كاتبـه
مخافة ربي والحياء يصدنـي — وأكرم بعلي أن تنال مراكبـه

فهارس الكتاب

وقد افتتح الكتاب في أوله بفهرس قيم حمل أبوابه العشرة وهي : شعر الدخول في الاسلام ، وتوحيد الله وتمجيده ، وشعر الجهاد والكفاح والنصرة ، وشعر الهجاء ، وشعر المديح ، وشعر

الرثاء، وشعر السياسة والفتن، والأخلاق الاسلامية، وشعر المواعظ، وأشتات من الشعر.

وهناك تسعة فهارس في آخر الكتاب هي: القوافي والبحور، وفهرس موسيقي يكشف عن استعمال الشعراء للقوافي والبحور، والشعراء وما لهم من مقطوعات شعرية، والأعلام، والأعلام من غير الأناسي، والجماعات والقبائل، والحوادث والأيام، والأمكنة، والمصادر.

وقد اعتمد المؤلف على أرقام صحائف الكتاب في فهرس الأبواب. أما الفهارس التسعة التي في آخر الكتاب فقد اعتمد فيها على أرقام تسلسل المقطوعات الشعرية.

وقد بلغت صفحات الفهارس ٦٧ صفحة بينما بلغت عدد صحائف الكتاب مع الفهارس ٦٣١ صفحة. ولا شك أن الجهد الذي بذل في تنظيم هذه الفهارس جهد ضخم مقدر مشكور كشف للقارىء كشفا يصل به الى كل جوانب الكتاب في سهولة ويسر. ولو اعتمد المؤلف على أرقام صفحات الكتاب لكان الكشف أيسر وأسهل للقارىء كما أرى. فالقارىء، اعتاد الوصول لما يريد عبر فهارس الكتب عن طريق أرقام صحف الكتب واقلاعه هنا عما اعتاده فيه صعوبة.

ويبدو لي أن اعتماد المؤلف على أرقام المقطوعات يتعب القارىء لأنه خالف المعتاد المألوف، وقد يشوش على المؤلف فيحصل السهو.. وأنا من القراء الذين تعبوا في الرجوع للفهرس ثم البحث عما أريد بين السطور.

ومما وجدته في الفهارس على سبيل المثال:

في فهرس الشعراء

• جاء فيه: أن أبا أحمد بن جحش عبيد ابن جحش الأخنس بن شريق في رقم (٣٢٨)، وهذا الرقم لمقطوعة سودة بنت عمارة ترثي علياً ابن أبي طالب ولا ذكر فيها لابني جحش، وابن شريق شيء.

كذلك جاء فيه، أن أروى بنت الحارث ابن عبد المطلب في رقم (٣٣٠)، وهذا الرقم لمقطوعة كعب بن مالك أو لابن رواحة بمناسبة قتل حمزة بن عبد المطلب في معركة «أُحد» شهيدا.

وجاء فيه أيضا، أن بكر بن جبلة الكلبي في رقم (٣١) وهذا الرقم لمقطوعة قردة بنت نفاثة السلولي بعنوان «اسلام وحمد».

كما جاء فيه أن تميم بن مقبل في رقم ٣٢٦، وهذا الرقم لمقطوعة كعب بن مالك بعنوان «قتل الامام»

وفي فهرس الاعلام:

جاء فيه أن اسم آدم في رقم ٥/٢٩٨ في البيت الخامس، وهذا الرقم لمقطوعة حسان ابن ثابت في رثاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ونص البيت الخامس:

ولا أزكي على الرحمان ذا بشر
لكن علمك عند الواحد العالي

وجاء فيه أيضا أن الرقم ١١٠ لاسم خولة بنت الأزور، وهذا الرقم لمقطوعة النمر بن تولب ولا ذكر فيها، ولا في هوامشها لخولة.

وفي فهرس الأعلام من غير الأناسي:

جاء فيه أن الرقم ١/٦١ لناقة صالح، وهذا الرقم لمقطوعة خفاف بن ندبة، ونص البيت الأول

لم تـأخذون سلاحه لقتالـه
ولذلكـم عنـد الاله أثـام

فلا ذكر لناقة صالح في المقطوعة ولا في الهامش.

وفي فهرس الجماعات القبائل:

جاء أن الرقم ٣٧ لجذيمة وهذا الرقم لمقطوعة منسوبة لعلي بن أبي طالب ولا يوجد فيها ولا في الهامش اسم لجذيمة.

وجاء فيه أيضا أن الرقم ٥/٤٧ لاسم عمرو ابن عوف الأنصاري وهذا الرقم لمقطوعة سواد ابن قارب ونص البيت الخامس فيها.

وأنك أدنى المرسلين وسيلـة
الى الله يا ابن الأكرمين الأطايب

وفي فهرس الحوادث والأيام:

جاء فيه أن رقم ٥/٢٠٢ لحادث بيعة الرضوان، وهذا الرقم لمقطوعـة أبي قيس ابن الأسلت ونص البيت الخامس فيها.

ولكنـا خلقنـا اذ خلقنـا
حنيفا ديننـا عن كل جيـل

ولا ذكر في المقطوعة ولا في هامشها لبيعة الرضوان.

وفي فهرس الأمكنة:

جاء فيه أن الرقم ٢١٩ هـ لاسم البحرين وهذا الرقم لمقطوعة عبد الرحمن بن ذي الآخرة ولا ذكر للبحرين لا في المقطوعة ولا في هامشها.

وفي فهرس القوافي والبحور:

جاء فيه أن الرقم ٢٩١ لمقطوعة قافيتها (الف) وأنها سبعة أبيات من البحر الوافر والشطر الأول منها «لعمر أبيكما يا ابني لؤَي». وهذا الرقم لمقطوعة تتألف من أربعة أبيات وأول شطر فيها:

من سره كرم الحياة فلا يـزل
في مقنب من صالحي الأنصار

وقافية المقطوعة (راء) وهي من البحر الطويل.

هذا بعض مما عثرت عليه من السهو الواقع في تنظيم الفهارس، أوردته على سبيل المثال لا الحصر.. ترى؟ لماذا كان هذا السهو في فهارس كتاب قيم كهذا يظهر لدنيا الأدب الاسلامي لأول مرة في التاريخ؟ هل كان السبب هو العدول عن تنظيم الفهارس على أرقام صفحات الكتاب كما هو المألوف عند القراء والمؤلفين أم كان هناك سبب آخر؟

بين فهرس الشعراء والأعلام:

المتتبع لفهرس الشعراء وفهرس الاعلام يعرف أن المؤلف اتخذ قاعدة، وهي اذا وضع اسم الشاعر في فهرس الشعراء لا يضع الاسم مرة أخرى في فهرس الاعلام. ولكن هذه القاعدة لم تتبع في اسم أبي بكر الصديق، فقد أتى به في صحيفة ١٠١ من الكتاب في مقطوعة أبي بكر الصديق نفسه رقم ٧٣ وترجم له.. كما أتى به في فهرس الاعلام في صحيفة ٥٨٥ حرف الصاد سطر ٩ عمود ٢ بلفظ الصديق أبو بكر ١/٢٨٢ و ٤/٣٤٣ وقد ذكر في المكانين. كذلك أتى به في فهرس الاعلام بصحيفة ٥٨٦ حرف العين السطر ١٧ بلفظ (عتيق، أبو بكر الصديق ١/٥٢ وقد جاء ذكره هناك.

ولا أدري هل هناك أسماء أخرى تناولها الفهرسان أم لا؟

بين مقطوعتين:

المقطوعة رقم ٣٧، ذكر المؤلف في العنوان أنها لعلي بن أبي الطالب، وفي الكلام عن (النسبة) قال: أن أكثر أهل العلم ينكرها له، وأن في البداية مثل ذلك وأنها والمقطوعة (١٥٨) من قصيدة واحدة والمقطوعة ١٥٨ لحمزه بن عبد المطلب، والمقطوعة المنسوبة لعلي بن أبي طالب من البحر المتقارب ومقطوعة حمزة بن عبد المطلب من البحر الطويل كما ذكر ذلك في فهرس القوافي والبحور.

وبعد، فان السهو الذي وقع في الفهارس.. أو الذي يبدو لي أنه واقع، وقد يكون لدى المؤلف شيء حياله، لا يقلل من قيمة الكتاب ولا من الجهد الذي بذله المؤلف الاستاذ عبد الله بن حامد الحامد، والمشرف الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا في اصداره بالدقة والعمق اللذين يظهران لقارئه.

ثم، هو خطوة موفقة ناجحة لحصر وجمع شعر الدعوة الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين لم تسبقها قبلها خطوة مثلها.. وانا نباركها ونبارك كلية اللغة العربية التي فتحت صدرها لمثل هذه البحوث فانبثق عنها هذا الكتاب الفريد ■

علي حافظ – جدة

اخبار الكتب

* آخر ما أخرجه الأديب الكبير الأستاذ محمد عبد الغني حسن كتاب « جوانب مضيئة من الشعر العربي » وهو دراسة في الشعر قديمه وحديثه تتناول موضوعاته الطريفة وكيف عولجت في شعر الأولين والآخرين ، كما تتناول ذكريات خاصة للمؤلف ومطارحات له مع الشعراء . وتتمثل في هذا الكتاب وحدة التراث ، لأن الأستاذ عبد الغني لا يفرق بين شعراء المغرب وشعراء المشرق وشعراء المهجر ، وهمه أن يجلو للأدب صورا مضيئة يجمعها شرف المعنى وبلاغة اللفظ . وقد نشرت الكتاب مكتبة الأنجلو المصرية .

* ومن الدراسات الأدبية الجديدة « زمن الشعر » للأستاذ أدونيس وكتاب بالفرنسية عنوانه « حاملو النار ودراسات أخرى » للأستاذ صلاح ستيتية وهو دراسة للشعر العربي الحديث ظهرت عن دار غاليمار في باريس ، و « شعراء فرس في الأدب العربي » للأستاذ يوسف حسين بكار وهي دراسة مستلة من نشرة كلية الدراسات الاسلامية بجامعة مشهد ، و « الأدب الموجه » للأستاذ السيد حسن الشيرازي وقد صدر عن دار الصادق ببيروت ، و « الشعراء الصعاليك في العصر العباسي الأول » للدكتور حسين عطوان ونشر دار الطليعة و « الحب والجمال والوطن : مختارات من شعر شوقي » تقديم الدكتور طه وادي ونشر مجلة الجديد ، و « لغتنا الجميلة » للأستاذ فاروق شوشة وقد صدر في سلسلة كتاب الاذاعة والتلفزيون . كما صدرت طبعة ثالثة من الكتاب المشهور « الديوان في الأدب والنقد » للراحلين الكبيرين عباس محمود العقاد وابراهيم عبد القادر المازني وقد نشرته دار الشعب .

كما أصدر الدكتور حسين مجيب المصري رسالة عن « ايران ومصر عبر التاريخ » عالج فيها صلات الأدب والتاريخ بين هاتين الدولتين ونشرتها مكتبة الأنجلو .

* دراسات اسلامية شتى صدرت منها : « أثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية » لنخبة من العلماء بالتعاون مع اليونسكو وقد صدر الكتاب عن الهيئة العامة للكتاب ، و « العالم الاسلامي المعاصر » للدكتور جمال حمدان ونشر عالم الكتب ، و « الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق » للدكتورة بنت الشاطىء ونشر دار المعارف ، و « صور من تقوى القلوب » للأستاذ محمود علي قراعة ونشر مكتبة مصر ، و « الأنبياء في القرآن » للأستاذ محمود الشرقاوي ونشر دار الشعب ، و « التشريع الاسلامي : أهدافه واتجاهاته » للدكتور محمد أنيس عبادة ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « شخصيات اسلامية معاصرة » جزءان للإستاذ ابراهيم البعثي ونشر دار الشعب ، و «علم الأبدان وعلم الأديان» للأستاذ محمود دياب ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « قيم حضارية في القرآن الكريم » جزءان للأستاذ توفيق محمد سبع وتقديم فضيلة الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ونشر مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر و « النظام المالي المقارن في الاسلام» للدكتور بدوي عبد اللطيف عوض ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية و « الحياة البرزخية في القرآن » للدكتور محمود بن الشريف ونشر دار الشعب .

كما صدر في مجلد واحد الدراسات الاسلامية التي وضعها العلامة الراحل عباس محمود العقاد بعنوان « اسلاميات العقاد » ونشرتها دار الشعب .

* في السيرة صدرت مجموعة من الكتب منها : « الامام الحسين » للعلامة الشيخ عبد الله العلايلي ونشر دار مكتبة التربية ، و « نابغة البحرين عبد الله الزائد » تأليف الأستاذ مبارك الخاطر ونشر الشركة العربية للوكالات والتوزيع ، و « رواد الشعر السكندري في العصر الحديث » للأستاذ عبد العليم القباني ونشر الهيئة العامة للكتاب .

* أحدث ما ظهر في الشعر ديوان « عفت سكون النار » للشاعر الأستاذ الحساني حسن عبد الله وبه مقدمة مسهبة في الدفاع عن الشعر الموزون المقفى والرد على دعاة الشعر الحديث ، وقد صدر الديوان عن مطبعة المدني . وطبع في بيروت الديوان الثاني للشاعر الشاب بشارة الخوري حفيد الأخطل الصغير بعنوان « الرياح الأخيرة » . كما تصدر طبعة ثانية لديوان « العرائس » للأستاذ ابراهيم العريض .

* « المعجمات العربية » عنوان دراسة ببليوغرافية مفهرسة لجميع المعاجم العربية قام باعدادها الأستاذ وجدي رزق غالي ، وقدم لها الدكتور حسين نصار ونشرتها الهيئة العامة للكتاب .

* من كتب التراث التي صدرت مؤخرا « القانون في الطب » لابن سينا بشرح وترتيب الأستاذ جبران جبور وتقديم الدكتور خليل أبو خليل وتعليق الدكتور أحمد شوكت الشطي ونشر مكتبة الطلاب ببيروت . ويصدر قريبا كتاب « مفاتيح النصر في التعريف بعلماء العصر » للعياشي الباجي من تحقيق الأستاذ جمعة شيخة .

* صدرت روايتان مترجمتان لأجاثا كريستي عن دار الكتاب الجديد هما : «العدو الخفي» ترجمة الأستاذ صادق راشد و « بيت الأسرار » ترجمة الأستاذ عادل محمود كمال .

وفي سلسلة « اقرأ » لدار المعارف صدرت طبعة جديدة من الرواية المشهورة « القصر المسحور » التي اشترك في تأليفها الدكتور طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم .

* في التربية وعلم النفس صدرت مجموعة من الكتب منها « السلوك والادراك » للدكتور عبد الفتاح الديري ونشر مكتبة الأنجلو ، و « الطاقة الروحية » لهنري برجسن وترجمة الدكتور سامي الدروبي ونشر الهيئة العامة للكتاب ، و « اتجاهات في تطوير مناهج تدريس الفنون » للدكتور لطفي محمد زكي ونشر دار المعارف ، و « الصحة النفسية للحياة الزوجية » للأستاذ صالح عبد العزيز ونشر الهيئة العامة للكتاب ■

كتب مهداة

حظيت مكتبة القافلة مؤخراً بهذه المجموعة من المؤلفات الجديدة التالية

* « راشد الخلاوي : حياته ، شعره ، حكمه ، فلسفته ، نوادره ، حسابه الفلكي » للاستاذ عبد الله بن محمد بن خميس ، وهو دراسة تحليلية وافية تناول فيها المؤلف بأسلوبه الرصين جوانب متعددة من شخصية هذا الفيلسوف العربي الذي قال عنه في مقدمته « .. فهو حكيم ذهبت أقواله حكما سائرة ، وامثالا نادرة ، وشواهد مأثورة .. » وقد بذل الأستاذ ابن خميس جهدا كبيرا في عرض قضايا هذه الدراسة على محك النقد وأداة التمحيص .. وقد طبع الكتاب على نفقة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير خالد بن فيصل بن عبدالعزيز آل سعود، أمير منطقة عسير . وباشراف دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ويقع الكتاب في نحو ٣٨٠ صفحة من الورق الصقيل .
* الجزء الثالث من المجلد الثامن من « معجم اللسان العربي » ، وهي مجلة دورية للأبحاث اللغوية ونشاط الترجمة والتعريب يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط التابع لجامعة الدول العربية :
* « معجم البناء » و « معجم الحرف والمهن » و « قاموس الطرق » وجميعها صدرت عن المكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي بالرباط.
* « متخير الألفاظ » تصنيف أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٥هـ ، حققه وقدم له الأستاذ هلال ناجي وقد صدر عن المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط .
* التقرير الثامن عشر عن رواية « عروس فرعون » والشوقيات الجديدة المملاة على حرم الدكتور سلامة سعد ، للأستاذ العلامة مصطفى السحرتي ، رئيس « رابطة الأدب الحديث » . وقد صدر التقرير عن دار الفكر العربي بالقاهرة ، ويقع في نحو ٣٠ صفحة ■

استدراك

جاءت سهوا كلمة « الراحل » قبل اسم الأستاذ عبدالعزيز الزامل الصالح السليم مؤلف « الخلاصة في تقويم الأوقات والفصول» في باب « كتب مهداة » في عدد شوال ١٣٩٢ .. والصحيح أن المؤلف ، أطال الله عمره ، ما زال حيا يرزق ،وهو مدير أحدى المدارس في مدينة عنيزة ، لذلك نرجو المعذرة ، وجل من لا يسهو . ■



الاستجمام

بقلم الدكتور فاخر عاقل

يحرص الانسان، أول ما يحرص على البقاء. ثم على توفير مطالبه الأخرى. والمادة التي يتكون منها الانسان تفنى، فلا بد له اذا أراد حفظ بقائه، حتى يأتيه الأجل المحتوم، أن يعوض ما يفنى، ولذلك فهو بحاجة الى الطعام والشراب والتنفس. ولا تقف حاجات الانسان عند هذا، بل تتعداها الى حاجات اجتماعية وشخصية وأخلاقية وغيرها:

والانسان، وهو يجهد في الحصول على حاجاته، يتعب. انه يقوم بجهد جسدي وفكري وكلا الجهدين متعب، وتتخلف عنهما فضلات من مثل حامض اللبن الذي يترسب في وصلات الخلايا العصبية، ويسبب التعب. ومن ثم كان لا بد للانسان أن يرتاح. وبدون الراحة لا يستطيع الانسان أن يواصل عمله وأن يمضي في جهده ليقضي حاجاته المختلفة.

معنى الراحة

النوم من الضرورات الأساسية التي يحتاج اليها الانسان في حياته، فهو لا يستطيع العيش دون أن ينال قسطا من النوم — قل أو كثر — ولا بد له أيضا من توفير الطعام والشراب اللازمين لتعويض ما فقد من قواه الجسمانية، كما لا غنى له عن الاسترخاء أحيانا لاحراق ما تخلف من فضلات نتيجة لعمله الجسدي أو الفكري.

ولكن هل هذه هي أسباب الراحة الوحيدة؟

والجواب القاطع هو النفي، ذلك بأن النوم والطعام والاسترخاء، وان بدت كافية في تعويض بعض ما يبذل الانسان من جهد، فانها لا تكفي في ترميم أنسجة الجسد وعضلاته وأعصابه، ولا بد من شيء آخر لمثل هذا التعويض.

ان من الأمور المسلم بها أن استبدال العمل بنوع آخر منه مريح، فأنت اذا كنت منهمكا في عمل جسدي قد أتعبك، وأردت أن ترتاح فعليك بالقراءة مثلا لتحصل على شيء من الراحة غير يسير. وعلى العكس اذا كنت منغمسا في عمل فكري قد أجهدك، فان استبداله بعمل يدوي قد يريحك.

ومن المعروف أن اللعب مبعث للراحة. ونحب هنا أن نشير الى أن ممارسة الألعاب الرياضية أمر يجب أن لا يقتصر على الصغار بل يجب أن يتجاوزهم الى الكبار. والحق أن على الانسان، بغض النظر عن سنه ومركزه، أن يمارس الرياضة ليستريح ويسترد نشاطه. وبديهي أن اللعب يختلف من عمر الى عمر ومن فرد الى فرد ومن مجتمع الى مجتمع ومن مستوى الى مستوى، ولكنه في كل الأحوال ضرورة لكل فرد.

والذي يهمنا في هذا المقام أن نتبين حقيقة وهي أن الراحة ليست مجرد نوم أو أكل أو استرخاء أو تكاسل، وانما هي عمل ونشاط وجهد، ولكن من نوع خاص.

ثم اننا بحاجة لأن نذكر الملل واختلاطه بالتعب، فعلماء الأعصاب يقررون أن الأعصاب لا تتعب، وأنها اذا تعبت — ولا بد — فان قدرتها على استعادة نشاطها سريعة لدرجة تكاد تفوق تصور الانسان العادي. ومن هنا كان القول بأنه في معظم الأحيان التي يشكو فيها الانسان من التعب يكون مصابا بالملل. وما من شك في أن الكسل من أهم الأسباب الباعثة على الملل لدى الانسان، وان العمل والنشاط هما أقدر شيء على طرد هذا الملل.

وما نظننا بحاجة للقول بأن الكسل صنو الملل، وأن العمل عدو الملل، وأن النشاط لا يختلط بالملل، ومن هنا كانت نصيحة علماء النفس بأن يكون الاستجمام عاملا من عوامل النشاط. وليس معنى هذا بالطبع أننا ننفي أن النوم أو الاسترخاء سبيل الى الراحة. كلا ولكننا ننفي أن يكون الكسل سببا للراحة. ولعلنا لا نأتي بجديد حين نقرر أن الكسل متعب، شأنه في ذلك شأن العمل الشاق، بل وأكثر من العمل الشاق أحيانا.

تزايد أوقات الفراغ

تقسيم العمل وتنظيمه وتزايد استعمال الآلة في العمل والتسيير الذاتي للعمل « Automation » وسواها من الأمور قد تسببت في تناقص وقت العمل بالنسبة للعامل في عصرنا الحالي، ووفرت له من أوقات الفراغ ما لم يكن متوفرا له من قبل، فساعات العمل الأسبوعية في البلاد المتقدمة لا

تتجاوز الأربعين ، وأيام العمل الأسبوعية لا تزيد على خمسة ، وهكذا يتوفر لعامل اليوم ست عشرة ساعة في اليوم ويومان في الأسبوعين يستطيع أن يتصرف بها كيفما شاء . أضف الى ذلك عطلة سنوية لا تقل عن أسبوعين . فهل يقضي الانسان هذا الوقت في النوم والاسترخاء والتكاسل ؟ أم يقضيه في نشاطات ترويحية تعود عليه بالصحة والسعادة ؟ ذلك هو السؤال الذي يواجه انسان اليوم .

واذا كان ما قلنا عن العامل صحيحا فانه أصح كذلك أيضا بالنسبة لفئات المواطنين الأخرى التي وفرت لها المدنية الحديثة من أوقات الفراغ ما يمكن أن تقضيه في مجالات الكسل ، أو أن تقضيه في النشاط الاستجمامي المنظم الذي يعود على أفراد المجتمع بالصحة والنفع .

وهنا نحب أن نقف وقفة قصيرة عند أمر مهم جدا ، وهو مسألة الجسد والعقل .

لقد قيل « ان لجسدك عليك حقا ، وان لعقلك عليك حقا » . والواقع أن الانسان جسد ونفس ، جسم وعقل . والسعادة هي في المحافظة على التوازن الدقيق والانسجام البديع بين الجسد والنفس . بحيث لا يعيش واحد منهما على حساب الآخر .

صحيح أن بعض الأعمال نابع من طبيعة جسدية في معظمها وبعضها نابع من طبيعة فكرية في معظمها . ولكنه صحيح أيضا أن المدنية الحديثة قربت بين الأعمال فاعطت الأعمال الجسدية مسحة فكرية ، وأعطت الأعمال الفكرية صبغة جسدية .

لذلك فان الجسد والعقل كليهما بحاجة الى تنشيط لكي تبقى لهما قوتهما وقدرتهما على العمل . وقديما قيل : « العقل السليم في الجسم السليم » .

ومن هنا كانت حاجة المرء الى المحافظة على جسمه لتنشيط عقله وتثقيفه وكانت حاجته الى سلامة العقل لتنشيط جسده وتشغيله ، لتبقى له قوته ومرونته .

وبما أن الجسد وعاء العقل فان سلامته شرط لسلامة العقل ، ومن هنا كانت أهمية المحافظة على سلامة الجسد التي لا يمكن المحافظة عليها الا بالعمل الجسدي . والحق أن رجل الفكر الذي لا يمارس الرياضة والعمل الجسدي قمين بأن يأتي عليه حين من الدهر يجد فيه أن جسده قد قعد به ولم يعد يستطيع أن يلبي مطاليب عقله . هذا ، ان لم يجد نفسه في العقد الخامس أو السادس من عمره عرضة للاصابة بأمراض خطيرة كتصلب الشرايين أو الجلطة الدموية .

وهكذا نرى أن راحة المرء بجسده وبعقله يجب أن تكون نشيطة وأن تصطلح فيها الأعمال العقلية والجسدية بحيث تعوض عليه ما افتقد من قوة دون أن تقعد به الى كسل وتراخ وقلة حركة .

الصحة تاج

لقد تعلمنا أن « الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه الا المرضى » ، ولكن فاتنا أن نتعلم أن الحفاظ على الصحة عمل دؤوب . يبدأ في اليوم الأول من الحياة ولا ينتهي الا ساعة الموت .

ولقد قالوا ان الوقاية خير من العلاج وفاتهم أن يقولوا أن الوقاية انما تكون ، في جملة ما تكون فيه ، في التريض والاستجمام الصحيح والراحة المنظمة والنشاط المتزن .

ولقد حدثونا عن أن العقل السليم انما يكون في الجسم السليم ، وفاتهم أن يقولوا أن سلامة الجسم انما تكون في النشاط المعتدل والعمل المسر والراحة المنظمة والاستجمام الصحيح .

ويبقى أن نشير هنا الى حقيقتين مهمتين : أولاهما أن المدنية الحديثة استطاعت من جهة أن تكتشف الأدوية لكثير من الأمراض ، واستطاعت بالتالي أن تقضي عليها ، مما خفف على الانسانية الكثير من الآلام والأمراض . ولكن هذه المدنية الحديثة بالذات جلبت معها أمراضها الكثيرة التي يعجز الطب حتى الآن عن علاجها ، والتي باتت تعرف باسم « أمراض العصر » .

في الماضي كانت أعمال الزراعة يدوية جسدية ، وكانت الصناعة يدوية جسدية ، والتجارة نفسها كانت يدوية جسدية الى حد بعيد . ولذلك كله كان الانسان يحتاج الى القليل من النشاط الجسدي يبذله خارج عمله ليحافظ على التوازن بين جسمه وعقله ..

أما اليوم فقد شقت الآلة طريقها الى الزراعة وصار الفلاح يستخدمها في انجاز معظم أعماله الزراعية . كما دخلت الآلة مجال الصناعة وصار العامل يكتفي بالضغط على زر أو ادارة آلة معينة لتأدية أعماله اليومية . كل هذه العوامل ساعدت على التقليل من العمل الجسدي والعمل اليدوي وبات تعب الزارع والعامل تعبا عقليا ، فازدادت حاجتهما الى ممارسة الألعاب الرياضية والنشاطات الجسمانية ليستعيدا نشاطهما وليحفظا على جسديهما المرونة والاتساق .

وثانية هذه الحقائق أن الانسان في العقود الأربعة الأولى من عمره يكون له من شباب جسده وفتوة أجهزته الجسدية رصيد كبير يسحب منه باستمرار ودون حساب ، ولكنه ما أن يكاد يشارف العقد الخامس أو السادس ، في بعض الأحيان ، حتى يجد أن هذا الرصيد قد تضاءل وأن هذا الجسد قد تراخى وأن هذه الأجهزة قد تعبت فتولدت لديه مشكلات صحية كحالات تصلب الشرايين وأمراض القلب وغيرها من الأمراض الأخرى .

ولو أن الانسان حافظ على جسده بالرياضة البدنية والعمل اليدوي والاستجمام المنظم والراحة المتوازنة منذ الشباب المبكر لما وصل الى ما وصل اليه

كل هذه الحقائق التي ذكرناها تجعل من الاستجمام وجها مهما من وجوه الحياة العصرية . ولعلنا لا نبالغ اذ نقرر أن صحة الأمة هي رأس مالها وأن الأمة العليلة يظل أبناؤها أسرى التخلف والجمود ..

ولقد أدركت الأمم المتقدمة هذه الحقيقة ، فحرصت ، في سبيل توفير الصحة لأبنائها ، على تبصيرهم بأهمية الاستجمام وأن للرياضة والاستجمام محلا لا يقل أهمية عن المكان الذي يحتله العمل . وقديما حث الاسلام على السباحة والرماية وركوب الخيل .

وهنا لا بد من الاشارة الى أن ممارسة الألعاب الرياضية يجب أن لا تكون وقفا على الشباب دون الكهول . ذلك أن الرياضة للكهول ألزم ، وان كان هذا لا يمنع أن يكون للشباب رياضتهم المناسبة لأعمارهم وقدراتهم وأن يكون للكهول بل وللشيوخ رياضتهم المناسبة لأعمارهم وقدراتهم .

أما الهوايات فليست وقفا على عمر دون آخر ، وهي لازمة للانسان في كهولته وشيخوخته أكثر من لزومها في شبابه .

وأما الألعاب الرياضية فمنها ما يمارس داخل المنزل ومنها ما يمارس خارجه ، ومنها ما يليق بالشباب ، ومنها ما يليق بالكهول ، ومنها ما يليق بالشيوخ . منها ما هو خاص بالنساء ومنها ما هو خاص بالرجال . ومع ذلك فجميعها ضرورية ومفيدة للحفاظ على الجسد والعقل .

ومن المؤسف أن نرى أننا أضعنا رياضتنا وألعابنا القومية ولم نتبن الألعاب الرياضية التي أتت بها المدنية الحديثة . مع العلم أن العربي قد مارس الرياضة منذ زمن طويل ، فقد مارس السباحة والرماية وركوب الخيل ، وأنه من الممكن أن نحيي ألعابنا القديمة ، وأن نتبنى من الألعاب المفيدة حديثها ، وما لا يتعارض مع معتقداتنا وتقاليدنا وعاداتنا ■

فاخر عاقل – دمشق

على هامش الملحمة العربية

المحرّم

للشاعر الراحل الدكتور زكي المحاسني

أتاني على رأس الشهور المحرّم ... فبتّ أناجيه ، وهل يتكلّم
حوى كل عُمْرٍ في الحياة وصاحب ... وسار كنهرٍ في الوجود يُغمغم
كطائرةٍ شبّهتُه مرّ طيفُها ... على الأرض فاهتاج المطارُ يُسلّم
صميمُ الثرى يهفو اليه من البلى ... وحنّت الى منآه عادٌ وجرهُم
وفي طبعه روحُ السفين ، وبحرُه ... تلاطمَ في موجٍ يفيض ويطحم
أو السالكاتُ السيرِ في بهجة اللقا ... لطيّ المدى ، والدربُ بالناس يزحم

* * *

أيا هجرةً جدّدتِ ذكرى (محمّد) ... وذكراه في الإسلام تسمو وتعظُم
أباني تاريخٍ وأنت جلالُه ... وعزّةُ دينٍ كلّ من فيه مُسلم
تلونا به « القرآن » فانهلّ دمعُنا ... ليعود به العزّ الرفيعُ المقدّم
غداةَ لنا الراياتُ في الشرق رفرفت ... وفي الغرب أجيادٌ لهنّ تحمحم
وفتحٌ مبينٌ يملأ الأرضَ زحفُه ... فأيّان منّا ذاك ! والدهرُ يُجرم ؟.

* * *

أيا قائد الأيام في معرك الورى ... خليلاك ليلٌ والنهارُ المحتّم
وساعاتُك الجندُ التي في عديدها ... يُغير بك الحربَ الجوادُ المطهّم
بشيرا بنُعمى قد أتيتَ تُنيلُها ... ونصبو اليها يقظةً ثم نحلم
ونهوى كروراً للسنين نريدُها ... حوافلَ بالرحمات والله أرحم
لنا في ضمير الغيب حقّ ننالُه ... على قدرِ مسعانا يجودُ وينعم
وما الدهرُ الا زاجرٌ لجهودنا ... اذا ما تقاعسْنا لها سوف ينقم
كفاحُ حياة المرء طفلا ويافعاً ... وطاعنُ سنٍّ للردى يتجهّم
ويُشقيه عقلٌ ان أصاخ لنقده ... ويُرضيه قلبٌ بالعقيدة يغنم
وفي حيوان البرّ والبحر والهوا ... دؤوبُ الرضا فيه الغريزةُ تحكُم

* * *

أيا سنةً هلّت بخيرٍ وسؤددٍ ... على العُرب والإسلام ، وجهُك يَسلم
تُجاذبُنا الأيامُ في البرّ والتقى ... لتحقيق آمالٍ لنا فيك تُرسم
أبنتَ السُّرى أعمارُنا رهنَ رحمةٍ ... وحبٍّ وودٍّ من فمٍ يتبسّم
وإن جدّ فيها الشرّ كوني وقاءنا ... بريّان آمالٍ بخيرٍ تُترجَم
تفكّرتُ في كرّ السنين وما بها ... على الخلق والأعمارُ فيهم تُحطّم
وما زال بؤسٌ في الحياة وإنما ... هو الدرسُ يُلقيه علينا المعلّم
لنحيا بتجديدٍ وننضو عتيقنا ... اذا رمّ ، ان لم يُجدِ فيه الترمّم
أيا عازفاً بالعود نمنم غناءه ... فقد نطق الزمّيتُ ما ليس يفهم
وقال هي الأوتارُ بالذمّ حرّكت ... وقالت لراعيها : ألا سوف تندم
ومن عاش في غير المحبّة جفّفت ... ينابيعُه ، فالحبّ للقلب أكرم
وئامُ بني الدنيا يُزيل خلافهم ... ويُفني لهم أحقادهم وهو أحكم
وما العيشُ مهما يطوِ آمادَه المدى ... بمحتملٍ للحيف والحيفُ أظلم
أتينا الى الدنيا لنعبدَ ربّنا ... وننشقَها ريحانةً تتشمّم
فأوقدْ ليَ الأنوارَ مصباحَ خاطري ... إذا جاء عامٌ ، فالخواطرُ تظلم
وكم خاطرٍ قد جفّ زيتُ ضيائه ... فلا تبكه فالشمسُ أقوى وأعظم

زكي المحاسني — دمشق

الأهرامات

مقابرُ حجريّة ضخمة نحتها وبناها المصريّون القدماء وقايةً لرفات عظمائهم من التلف. ولكنّ هذه الرّفات بادت وتلاشت وبقيت تلك المقابر معالمَ أثريّة تحكي للأجيال المتعاقبة روعة الفنّ المعماريّ، وما بلغه المصريّون القدماء من قدرة وإتقان في حقل العمارة والبناء.

بقلم الاستاذ محمد زكي راغب



الزوار يؤخذون بروعة الفن الفرعوني التي تجلت في تمثال أبي الهول في الجيزة .

منذ نحو خمسة وعشرين قرنا ، زار المؤرخ اليوناني الشهير « هيرودوتس » الآثار المصرية القديمة ، فاكتشف أن هنالك أناسا سبقوه الى مثل هذه الزيارة ، اذ وجد على جدران تلك المعالم الأثرية أسماءهم محفورة بمختلف اللغات القديمة . ولا تزال صفحات هذه الحجارة الضخمة تحمل مئات الأسماء القديمة والحديثة . ولا يملك الزائر للأهرامات الا أن يقف حائرا مشدوها أمام روعة هذه المعالم الأثرية وضخامتها .

على انما يثير التساؤل ويبعث على الاعجاب ، هو كيف استطاع المصريون القدماء تشييد هذه الأهرام الهائلة واخراجها في هذا النمط الهندسي العجيب ، في الوقت الذي لم يكن لديهم سوى معدات يدوية بسيطة . فهم لم يستعملوا العجلات الا عقب بناء الهرم الأكبر بألف عام ، كما أنهم لم يستعملوا الرافعات ولا البكرات مطلقا . ومع هذا فان المقابر والهياكل التي شادوها لا تزال في نظر كبار المهندسين من روائع المنجزات في فن البناء .

وربما كان اقتلاع كتل الحجارة ونقلها من أصعب المشكلات التي واجهها المصريون القدماء في بناء الأهرام . فمن خلال الوثائق التاريخية المصرية يتضح أن عمال المحاجر هناك كانوا يتوخون اقتلاع الصخور الخالية من العيوب وذات الضخامة الكافية . فإثر تسوية سطح الصخرة تنقش عليه خطوط التحديد الرئيسية ، ثم يشرع العمال المختصون بعدئذ بعملية فصلها عن الصخرة الأم ، مستخدمين في ذلك المطارق اليدوية أحيانا وطرقا أكثر تعقيدا أحيانا أخرى . فعلى طول خط التحديد في الصخرة تحدث حفر عميقة متناسبة الأبعاد ، ثم تنزل فيها أسافين خشبية ، وبعدئذ تشرب هذه الأسافين بالماء مرارا ، فتتمدد لتشق الصخرة ضمن الخطوط المحددة . وبعد أن يتم فلق الصخرة تقصب تقصيبا مبدئيا في مكانها ، ثم تنقل الى الموقع الذي ستشاد فيه .

هرم الجيزة الأكبر

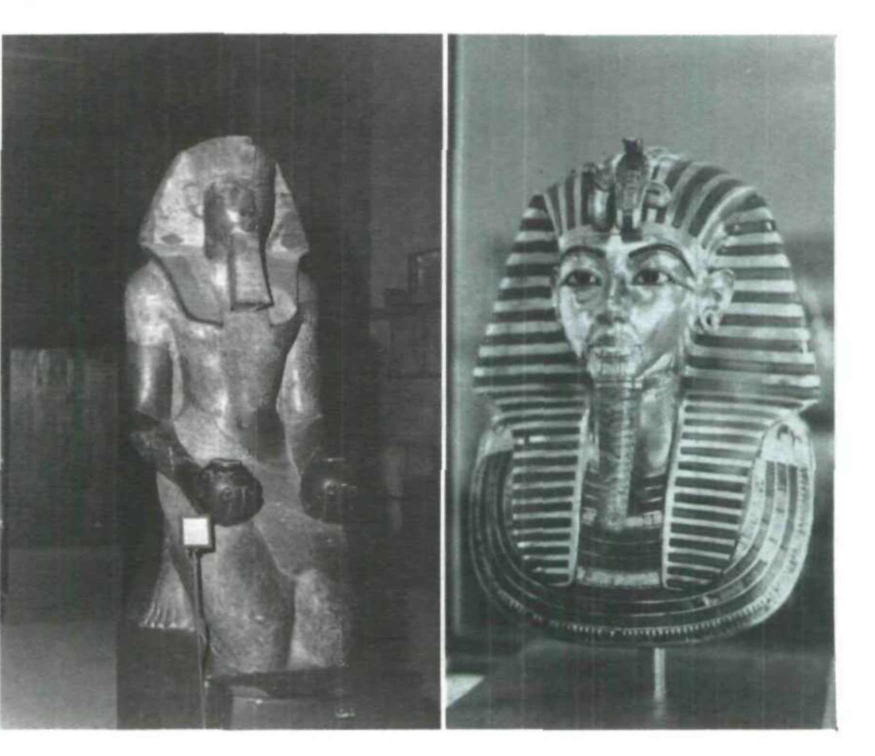
قضى مهندسو ذلك العهد ما يقرب من ربع قرن في تشييد هرم الملك « خوفو » واذا أردنا وصف الهرم لطال بنا الأمر ، ويكفي أن نذكر أنه يشغل مساحة لا تقل عن ثلاثة عشر فدانا ، وقد استخدموا في بنائه عددا لا يقل عن ٢٣٠٠٠٠٠ كتلة من الحجر قطعوها من محاجر الهضبة نفسها ، ويزن بعضها ما يزيد على ثمانية أطنان ، ويقل وزن البعض الآخر (الجزء الأعلى من الهرم) عن طن واحد .

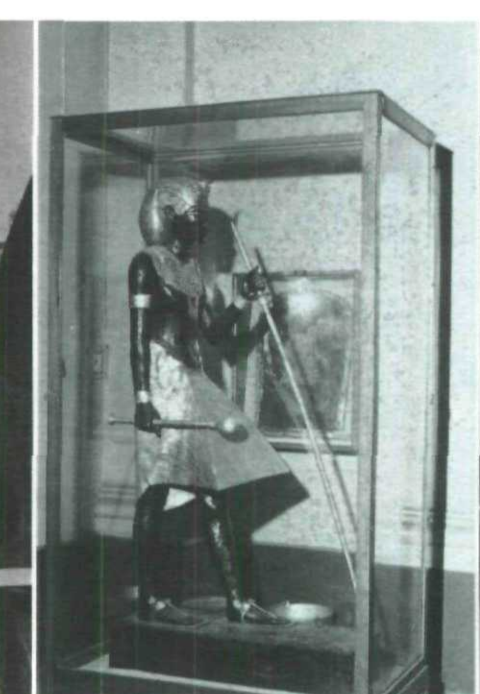
وارتفاع الهرم ١٤٦ مترا ، وطول ضلع قاعدته ٢٣٠ مترا ، ولكن هذا كله يتضاءل أمام اعجابنا بدقة المصريين القدماء وتفوقهم في فن البناء ، ولا سيما في ضبط الزوايا والأبعاد . وسيزداد الزائر اعجابا اذا زار داخله واتخذ طريقه في تلك الطرقات القليلة الارتفاع ، ثم وجد نفسه في تلك الردهة المرتفعة ، ووقف أخيرا يتطلع الى حجرة الدفن حيث يوجد تابوت الملك «خوفو» .

لقد روى المؤرخ اليوناني « هيرودوتس » نقلا عن الكهنة المصريين ، وصفا شاملا للآلات الخشبية التي استخدمت في نقل كتل الحجارة الثقيلة من مكان الى آخر ، مما يبعث على الاعتقاد بأن المصريين اكتشفوا سر صنع تلك الآلات واحتفظوا به لأنفسهم . وقد كان عمر الأهرام ، حتى عهد « هيرودوتس » يناهز الألفي عام ، الأمر الذي أدى الى طمس تلك الحقيقة وتشويه معالمها واثارة الأساطير والخرافات من حولها .

ومع أن معظم نظريات بناء الأهرام نظريات افتراضية ، الا أنها لم تخرج عن حقيقة كون حجارتها قد قطعت وقصبت ونقلت ، ثم وضعت في النهاية في المكان المعد له من البناء .

وككل مشروع عمراني ، فان أول مشكلة واجهت المهندسين آنذاك ، هي تأمين المواد الخام . وهي مهمة جسيمة بالنسبة للأهرام . فقد كانوا بحاجة الى الغرانيت لبناء الحجرات الداخلية ، والحجارة الكلسية الصفراء للممرات الرئيسية ، والحجارة الكلسية البيضاء للجدران الخارجية . كما كانوا بحاجة الى أطنان عديدة من النحاس لصنع عشرات الآلاف من المعدات ،





والى كمية كبيرة من القنب وألياف البردى لصنع الحبال ، وكذلك الى آلاف جذوع الأشجار والأخشاب لصنع العوامات الخاصة بنقل كتل الصخور الضخمة ، والرافعات والمزاليج والمحادل . ولتوفير ذلك كله كان لا بد لهم من البحث والتنقيب في مختلف أنحاء البلاد . فلتأمين حجارة الغرانيت مثلا قصدوا محاجر أسوان ، والحجارة الكلسية الصفراء توجهوا الى التلال المحلية المجاورة ، والحجارة الكلسية البيضاء قصدوا « طره » التي تبعد بضعة أميال عن الجيزة . أما بالنسبة لتأمين النحاس فقد قصدوا صحراء سيناء ، في حين قصدوا جبال لبـــنان في طلب الأخشاب . وما هي الا فترة قصيرة حتى بوشر في أعمال التعدين وقلع الحجارة وقطع الأخشاب ونقل جميع المواد الأولية الى مواقع العمل بسرعة تفوق الوصف وتسترعي الاعجاب .

هذا ، وكانت مشاكل التوظيف لا تقل صعوبة عن مشاكل البناء . فبالرغم من أن معظم الموظفين ، كما ذكرت المخطوطات ، كانوا من العمال العاديين ، فان هنالك عددا كبيرا من ذوي الاختصاص كالبنائين ، وعمال النقل ، والجنود ، والمترجمين ، والحراس ، والأطباء قد شاركوا في هذه الانجازات الضخمة .

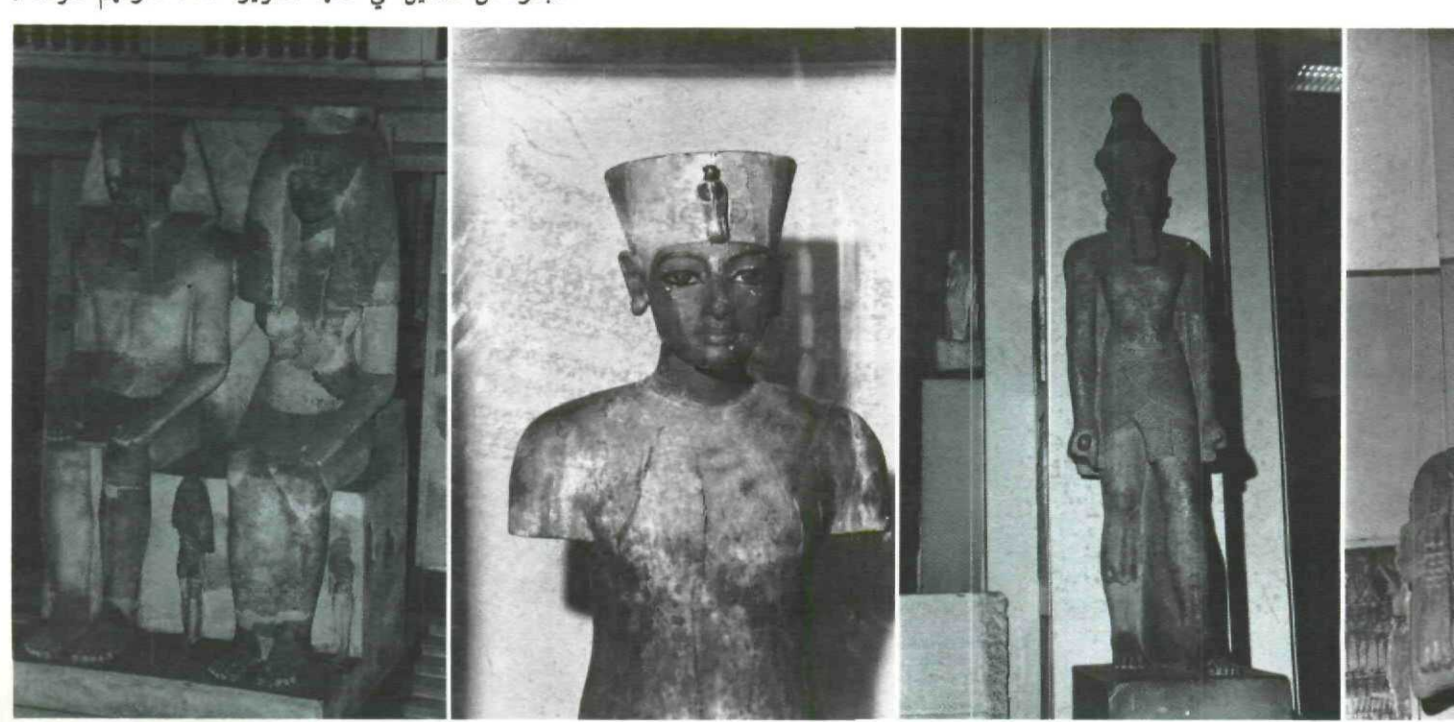
وفي موقع البناء نفسه كان لا بد من وجود فريق آخر من البنائين ، والمشرفين والمهندسـين المعماريين ، وعدد كبير من عمال الخدمة . وقد بلغ عدد الذين اشتركوا في بناء الهرم الأكبر في الجيزة حسب تقدير « هيرودوتس » ، حوالي مائة ألف رجل ، في حين أن التقديرات الحديثة تشير الى أن هذا الرقم يرقى الى ٢٥٠ ٠٠٠ رجل . وأيا كان الرقم الصحيح ، فان تأمين السكن والطعام لمثل هذا العدد الهائل من الرجال مدة تزيد على عشرين سنة متواصلة ، أمر غاية في الصعوبة .

وقلب الهرم مشاد من جدران عمودية ترتفع على شكل مدرج ، كل مدماك فيها ينخفض عن الأدنى منه بنسبة معينة . وبما أن كل عدة أدوار منه تشكل هرما مخروطيا ، لذلك فان النظرية الحسابية التي استخدمت قديما في بناء المسلات لعبت دورا كبيرا في بناء الأهرام أيضا . فبهذه النظرية يستطيع المهندس المعماري حساب حجم ما تم بناؤه من الجدران ، واجراء تقدير لما يحتاج اليه من مواد البناء والمعدات والأيدي العاملـــة .

وكلما ارتفع بناء الجدران ، طمر حوله الحصى والطين في شكل منحدر يسهل حركة المزالق الخشبية التي تنقل بواسطتها كتل الحجارة الى الارتفاع المطلوب . حتى اذا ما أنجز قلب الهرم شرع في بناء الجزء الخارجي منه متدرجا من أعلى الى أسفل بحجارة بيضاء منحوتة مثلثة الشكل . وكلما أنجز جزء من البناء ، أزيل الردم عن جزء آخر ، وهكذا حتى يبلغ البناء المرحلة الأخيرة ، ويكون الردم كله قد أزيل عن الهرم ، فيصبح عندئذ صرحا شامخا كالطود ناصع البياض .

ولا تحتل غرفة الدفن في الهرم أكثر من حجرة صغيرة تكون في العادة تحت مستوى سطح الأرض ، ويؤدي اليها ممر صغير ينتهي بمدخل سري صغير في الجهة الشمالية . أما الهرم الأكبر ، ففيه تغيير هندسي بارز ، اذ جعل فيه مدفنان في الهرم نفسه علاوة على المدفن التقليدي الثالث الموجود تحت مستوى سطح الأرض ، والذي يؤدي اليه ممر سري . وبالاضافة الى ذلك ، فان الغرف في الهرم الأكبر مشادة من الغرانيت وتتسم بطابع هندسي غاية في الروعة والجمال . فالرواق الأكبر الذي يشكل جزءا من الممر المؤدي الى غرفة الدفن ، والذي يبلغ طوله نحو ٥٠ مترا وارتفاعه نحو ٩ أمتار ، قد ازدان سقفه وثلاثة أرباع جدرانه العليا بمختلف النقوش الأثرية . وغرفة الدفن مبنية بكاملهـــا بالغرانيت ، وتعلوها خمس غرف قليلة الارتفاع وذات سطوح مقببة هي أيضا مبنية بحجارة غرانيتية ضخمة يزن الواحد منها حوالي ٥٠ طنا . فبفضل الحجارة الضخمة ، أصبحت جدران هذه الغرف من القوة بحيث تتحمل ثقل الهرم الهائل الذي يعلوها دون أن تنهار أو تتداعى .

مجموعة من التماثيل التي أقامها المصريون القدماء لملوكهم الفراعنة .

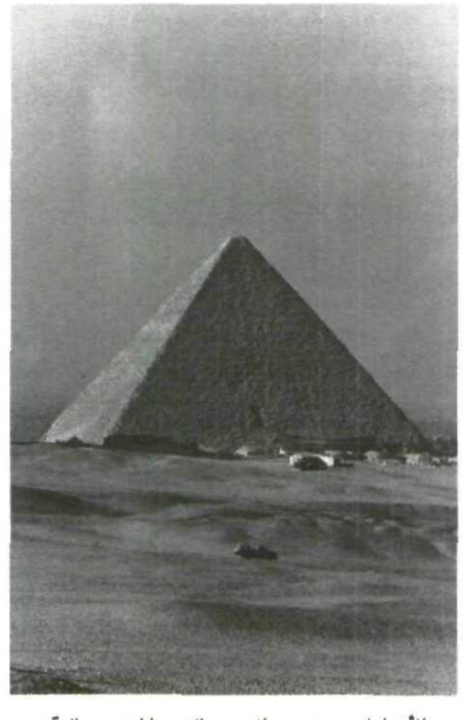


وعندما بدأ مهندسو هرم « خوفو » في تشييد الهرم لم يكن التصميم الأصلي هو البناء الحالي الذي نراه أمامنا ، بل كان يقل عنه . ولم تكن حجر دفنه في داخل البناء بل كانت مقطوعة في الصخر ، ويؤدي اليها ممر منحدر في جوف الأرض . وأثناء العمل غيّر المهندسون التصميم وزادوا من البناء وأصبحت حجرة الدفن في داخل البناء نفسه ، وهي المعروفة الآن خطأ باسم « حجرة الملكة » .

وللمرة الثانية غيّر المهندسون التصميم ، وقاموا ببناء الردهة الكبرى الصاعدة المؤدية الى حجرة الدفن .

وكان الهرم بأكمله مكسوا من الخارج بالحجر الجيري الأبيض الذي اقتلع من محاجر « طرة » في الشاطيء الشرقي للنيل ، وكان له هيكل كبير في الناحية الشرقية منه ما زالت بقاياه موجودة ، وعلى الأخص أرضيته المصنوعة من حجر « الدلوريت » الأسود اللامع المقطوعة من محاجر في شمال بحيرة « قارون » في الفيوم .

وكان هناك هرم صغير في الناحية الجنوبية من هرم « خوفو » هدم وازيلت أحجاره منذ عهد بعيد . كما قام المهندسون بشق أماكن كبيرة الحجم في الصخر كانوا يضعون فيها سفنا كبيرة من الخشب لتكون تحت تصرف الملك خوفو .



الأهرامات من روائع الفن الهندسي التي انجزها المصريون القدماء قبل آلاف السنين .

رسم تفصيلي لأسلوب البناء الذي اتبعه المصريون القدماء في تشييد الاهرامات .. وقد اقتبسه الفنان عن نموذج معروض في متحف العلوم بمدينة «بوسطن» الأمريكية .

وقد كشفت الحفائر عن ثلاثة من تلك الأماكن المعدة للمراكب في الناحية الشرقية من الهرم ، وعثر مؤخرا على أماكن جديدة في الناحية الجنوبية ، وقد رفعت الأحجار الضخمة التي سقف بها مكان واحد منها ، فكشفت عن أجزاء مركب كبير من خشب الأرز في حالة جيدة ، ومعه جميع معداته من مجاديف وحبال ومقصورة للجلوس . وطول هذا المركب ثلاثة وأربعون مترا ونصف المتر ، وارتفاع مقدمته خمسة أمتار ، وارتفاع مؤخرته سبعة أمتار ، وهذه المراكب هي المعروفة الآن باسم « مراكب الشمس » .

• • •

والهرم الأكبر ، أو هرم « خوفو » تحوم حوله كثير من الأساطير والمعتقدات الضالة ، فإليه ينسب كثير من النظريات الباطنية ونظريات الاسرار الخفية ، كما كان الكهنة من قدماء المصريين يعقدون اجتماعاتهم بداخله ، وكانوا يعتبرونه مصدر حكمة لهم . ويجد بعض الناس في أبعاد ممراته وحجراته أساسا لنظريات كثيرة تفسر أو تتكهن بوقوع حوادث ذات أهمية تاريخية . كما يعتقد بعض الناس أن لهذا الهرم أهمية علاجية ، وأن ذبذبات معينة تصدر منه من مقتضاها علاج كثير من الأمراض في مجال أرضي معين .

وبالرغم من هذه الآراء والنظريات الغربية فقد أثبتت البحوث الأثرية اثباتا قاطعا أن الهرم الأكبر ليس الا مقبرة أقيمت ليدفن فيهـا الملك « خوفو » .

هرم الجيزة الثاني « هرم خفرع »

كان هرم « خفرع » ، وهو الابن الأكبر للملك خوفو ، من الأهرام التي لم تفقد كل كسائها الخارجي ، اذ ما زال جزء منه باقيا في قمته . وبالرغم من أن حجارة الكساء فقدت لونها الأبيض الجميل الذي تحول الى لون بني داكن ، فان الأحجار ما زالت تحتفظ بصقلها الجيد .

كانت البقعة التي اختيرت لتشييد الهرم فوقها تنحدر بشدة من الغرب الى الشرق ، مما اضطر المهندسين لنحت صخر الهضبة في الجهتين الشمالية والغربية ، واستخدام الأحجار التي استخرجوها أثناء هذه العملية لملء الفجوات التي في الهضبة .

ويبلغ ارتفاع هرم « خفرع » ١٤٣,٥٠ مترا ، وطول كل ضلع من اضلاع قاعدته المربعـة ٢١٥,٥٠ مترا ، وظل مدخله مدفونا تحت الردم فترة طويلة . وفي عام ١٨١٨ ميلادية نجح العالم الأثري الايطالي « جيوفاني بلزوني » في العثور على مدخله والوصول الى حجرة الدفن .

ولهذا الهرم مدخلان يقعان في واجهته البحرية ، والمدخل الذي اكتشفه « بلزوني » يرتفع ١١ مترا عن سطح الأرض ، أما المدخل الثاني فهو مقطوع في الصخر في مستوى سطح الأرض ، ويفسر الكثيرون من علماء الآثار وجود المدخلين لهرم واحد ، بأنه نتيجة لتغيير تصميم الهرم أثناء بنائه ، ولكن الحقيقة أن وجود مدخلين ، سواء في هذا الهرم أو غيره أمر طبيعي . كان أحدهما مبنيا باتقان ومحصنا بمتاريس كبيرة ثقيلة . أما المدخل الثاني فقد كان معدا لدخول العمال وخروجهم وقد قاموا باغلاقه بالحجر بعد دفن الملك .

وترتيب الأجزاء الداخلية في هذا الهرم بسيط جدا . فمدخل « بلزوني » يؤدي الى ممر هابط جدرانه وسقفه من الجرانيت الأحمر ، ثم يؤدي بعد ذلك الى ممر أفقي في نهايته متراس مـن الجرانيت ، أما مدخل سطح الأرض فيؤدي الى ممر هابط منحدر ، ويظهر أن هذا المدخل هو المدخل الأصلي ، ثم الى ممر منحدر آخر يؤدي الى حجرة الدفن ، وهي فارغة ومنحوتة في الصخر .

والجزء الأسفل من حجرة الدفن مشيد بالحجر الجيري ، ويكاد يكون في منتصف الهرم تماما .

° ° °

هرم الجيزة الثالث « هرم من - كاو - رع »

وهرم الملك « من - كاو - رع » ، وهو الابن الثاني للملك خوفو ، هو آخر مجموعة أهرام الجيزة في الهضبة الجنوبية ، ويصغر كثيرا في الحجم عن الهرمين الأول والثاني ، ولكنه يمتاز عنهما بذلك الكساء الفخم من الجرانيت الذي كان يغطي جزءا من هذا الهرم ، وبهيكله الذي صمم ليكون فخما الى حد بعيد . ولكن « من - كاو - رع » مات قبل الانتهاء من وضع كساء الهرم ، ولهذا ، فقد وقع على كاهل خليفته « شيسكاف » اتمام ما لم يتم من مبانيه ، ولهذا فقد قام باتمام مباني هرم أبيه في صورة رخيصة سريعة ، اذ أتمها بالطوب النيء وفي الوقت ذاته ، لم يحاول أن يشيد لنفسه هرما كبير الحجم .

وهرم الجيزة الثالث مبني على مقربة من الجبانة الاسلامية الحديثة لبلدة « نزلة السمان » ، وهو مبني باللبن ، باستثناء قواعد الأعمدة وبعض أجزاء من الأرضية وعتبات الأبواب فانها من الحجر الجيري ، ومدخله يقع في الناحية الشرقية ، ويؤدي الى ردهة صغيرة كان سقفها محمولا على أربعة أعمدة ، وعلى كل من جانبي هذه الردهة أربعة مخازن تفتح مداخلها من دهليز يمتد على طول البناء ، ويلتقي بدهليز آخر يمتد على طول الجانب الجنوبي من الهرم . وفي منتصف الردهة باب يؤدي الى الفناء الكبير ، وفي منتصف الفناء طريق ممتد من الشرق الى الغرب .

وهرم « من - كاو - رع » لم يزل في حالة لا بأس بها ، ولم يصبه كثير من التهديم كما أصاب غيره . ويبلغ ارتفاعه في الأصل ٦٦,٥٠ مترا ، وطول كل ضلع من أضلاع قاعدتـه ١٠٨,٥٠ أمتار ، أما مدخله فيرتفع نحو أربعة أمتار فوق سطح الأرض .

واستخلص بعض علماء الآثار حقيقة جديرة بالتنويه ، مفادها أن الفراعنة قد أدركوا أهمية الطوب النيء في البنـاء ، اذ يتميز بقدرة عجيبة عـلى البقاء مدة طويلة وعـلى عزل الحرارة .

هرم سقارة المدرج

يبعد هذا الهرم ما يقرب من خمسة وعشرين كيلومترا عن قلب مدينة القاهرة ، وهو من أهم المناطق الأثرية في مصر ، وفيه مقابر تغطي جدرانها نقوش لا تفضلها في جمالها نقوش أخرى ، كما يوجد فيه هياكل ومدافن « السرابيوم » ولكن هذه الآثار كلها تتضاءل أمام الهرم المدرج نفسه .

والهرم المدرج يعتبر من أقدم الآثار الفرعونية اذ يرجع تاريخ بنائه الى حوالي سنة ٢٧٨٠ قبل الميلاد ، وهو كبير الحجم قائم بذاته ، مشيد كله من الحجر ، كما يعتبر أول مقبرة ملكية بني جزؤها العلوي - أي الذي فوق سطح الأرض - من كتل حجرية ضخمة . وقد بناه الملك « زوسر » ابن الملك « خع - سخموي » الذي ما زال علماء الآثار لا يعرفون الشيء الكثير عنه . وقد ارتبط اسم « زوسر » ارتباطا وثيقا بالمنطقة الواقعة الى الجنوب من مدينة أسوان ، والتي عثر فيها على لوحة عليها اسمه واسم مهندسه المعماري « ايموحتب » ، ويرجع تاريخها الى عهد يزيد على ٢٧٠٠ عام بعد موت « زوسر » ، وهي منقوشة على صخرة في جزيرة « سهيل » جنوبي أسوان .

ومباني الهرم المدرج جميلة تأخذ بلب الزائر ، وتمتاز بأنها مشيدة من الحجر الجيري ، ويحيط بالهرم نفسه سور من الحجر الجيري الأبيض كان ارتفاعه عند تشييده ١٠,٤٠ أمتار ، وطوله من الشمال الى الجنوب ٥٤٥ مترا ، ومن الشرق الى الغرب ٢٧٧ مترا ، وله أربع عشرة بوابة محصنة ، منها ثلاث عشرة بوابة رمزية ، أي مرسومة فقط على السور ، وبوابة واحدة حقيقية وهي التي استخدمها القدماء ، وما زال يستخدمها زائرو هذا الأثر . وقد استخـدم المهندس « ايموحتب » في تشييد سور الهرم كتلا من الحجر صغيرة الحجم جدا .

أما مدخل البوابة الخارجية للهرم فيقع في الناحية الشرقية ، وهو يقود الى بهو طويل تبرز من جانبيه عشرون ركيزة متصلة بالجدار يبلغ ارتفاع كل منها ٦,٦٠ أمتار وفي نهاية كل ركيزة عمود متصل بها ، وفي نهاية البهو قاعة صغيرة مستطيلة يرتكز سقفها على ثماني ركائز من طراز خاص لم يتكرر مرة أخرى في العمارة المصرية القديمة ، ويرى الزائر بعد اجتياز نهاية البهو ممرا ضيقا في نهايته ما يمثل بابا نصف

مفتوح ، ويجد أمامه المقبرة الجنوبية ، وعلى يمينه يرتفع الهرم نفسه .

ويشير أكثر المشتغلين بالدراسات المصرية القديمة الى أن « الهرم المدرج » قبر رمزي للملك « زوسر » بصفته ملكا للوجـه القبلي « أي الجنوب » .

والحقيقة المؤكدة أن الملك « زوسر » دفن في هذا الهرم ، كما دفنت أسرته على مقربة من قبره .

أبـــو الهـــول

يربض هذا التمثال الضخم المنحوت في الصخر على الحافة الشرقية من هضبة أهرام الجيزة . وقد كان مدفونا في الرمال حتى عنقه ، غير أنه في عام ١٩٢٦ ميلادية تم رفع الرمال من حوله . ويرجع تاريخ أبو الهول الى أيام الملك « خفرع » باني الهرم الثاني .

وقصة أبو الهول ، كما كشفت عنها الحفائر ، قصة طويلة ، ولهذا يحق لنا أن نتساءل : كيف نشأت ؟ وما هو السبب الذي جعل « خفرع » يقوم بهذا التجديد ؟ ويربض أبو الهول في وسط مكان منخفض على الحافة الشرقية للهضبة التي قطع منها العمال الأحجار اللازمة لبناء الأهرام ، ولكن بقيت في وسطه كتلة كبيرة تركوها في مكانها لأن حجرها كان من نوع غير جيد . وكان وجود هذه الكتلة الكبيرة في مكانها على مقربة من الأهرام شيئا لا يروق للعين ، بل يفسد منظر الهرم الثاني والطريق الصاعدة اليـه ، واقترح مهندسو الملك « خفرع » أن يصنعوا من هذه الكتلة تمثالا فخما للملك على صورة أسد له رأس انسان .

وأبو الهول منحوت كلـه في صخر الجبـل ، ويبلغ ارتفاعه ٢٠ مترا ، وطوله ٥٧ مترا ، ولكن مع مرور الزمن تفتت بعض أجزاء من الحجر غير الجيد وتآكل بسبب القدم وهبوب العواصف الرملية .

وينظر أبو الهول نحو الشرق ، وهو بسيط في نحته ، عظيم وعلى رأسه لباس في هيئته ، الرأس الملكي المعروف باسم « نمس » وينزل على جانبي وجهه الذي يمثل وجه الملك « خفرع » نفسه ، وقد تحطم أنفه حديثا .

ويذكر المؤرخ العربي « المقريزي » المتوفى عام ١٤٣٦ ميلادية ، سبب تحطيم أنف أبي الهول بأنـه كان يعيش في زمانه رجل صوفي يسمى « صائم الدهر » وكان هذا الرجل ممن يريدون ادخال الاصلاح في أمور الدين ، فذهب الى منطقة الأهرام وحطم أنف أبي الهول .

وبالرغم من أن أحدا من ملوك الدولة القديمة لم يحاول تقليد هذا التمثال الضخم ، فانا نجد في النقوش التي كانت تزين الطرق الصاعدة لأهرام الأسرتين الخامسة والسادسة مناظر مختلفة في جهة الشرق تمثل الملك على هيئة أسد يصرع أعداء مصر المطروحين أمامه على الأرض .

وفي الحفائر الأخيرة التي قامت بها مصلحة الآثار المصرية ظهرت لوحات كثيرة مهمة تدل على أن أبا الهول كان موضع تكريم خاص ، وأن كثيرا من الملوك كانوا يأتون لزيارته. وأهـم ما عثر عليه في تلك الحفائر هيكل صغير شيده الملك « امنحوتب » الثاني تكريما لأبي الهـول ، وهو قريب جدا في الناحية الشمالية والشرقية منه ، وهو مبني باللبن ، ولكن مداخل أبوابه مبنية بالحجر الجيري الجيد ، وعليها نقوش متعددة ، وأهم ما في الهيكل لوحة كبيرة الحجم من الحجر الجيري ، يقص علينا فيها الملك « امنحوتب » الثاني سبب بناء الهيكل .

وأضاف بعض الملوك الذين حكموا مصر بعد « امنحوتب الثاني » بعض الزيادات في هذا الهيكل ، ونجد الملك « سيتي الأول » أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة يقدم لوحة من الحجر الجيري في هيكل جانبي يتفرع من فناء الهيكل الرئيسي ، وعلى هذه اللوحة نرى « سيتي الأول » يصيد الحيوانات . ومن أعمال « سيتي » أيضا أنه أضاف قائمتي كتف البوابة الخارجية لهذا الهيكل.

لقد مرت آلاف السنين وما زال « أبو الهول » جاثما في مكانه ينظر نحو الشرق وعلى شفتيه ابتسامة باهتة . وجدير بنا أن نشير الى حقيقة فلسفية التزمها المصري القديم ملكا ورعية ، وهي أن تقدم الحياة وقيام العمارة لا يكونان الا بالعقل والسواعد ، واذا فأبوالهول هو النصب التذكاري لفلسفة مجردة للمادة وللطاقة .

وقد قال فيه أمير الشعراء أحمد شوقـي قصيدة ، منها :

الام ركوبـك متن الرمـا
ل لطي الأصيل وجـوب السحر
تسافـر منتقلا فـي القـرو
ن فأيـن تلقي غبـار السفر
أبينـك عهـد وبين الجبا
ل ، تزولان في الموعد المنتظر

على هامش المقال

ومما تجدر الاشارة اليه هنا أن معظم جدران المقابر والهياكل الدينية التي بناهـا المصريون القدماء والتي

أحد الأهرامات الثلاثة الضخمة التي شيدها المصريون القدماء لأضرحة ملوكهم ..

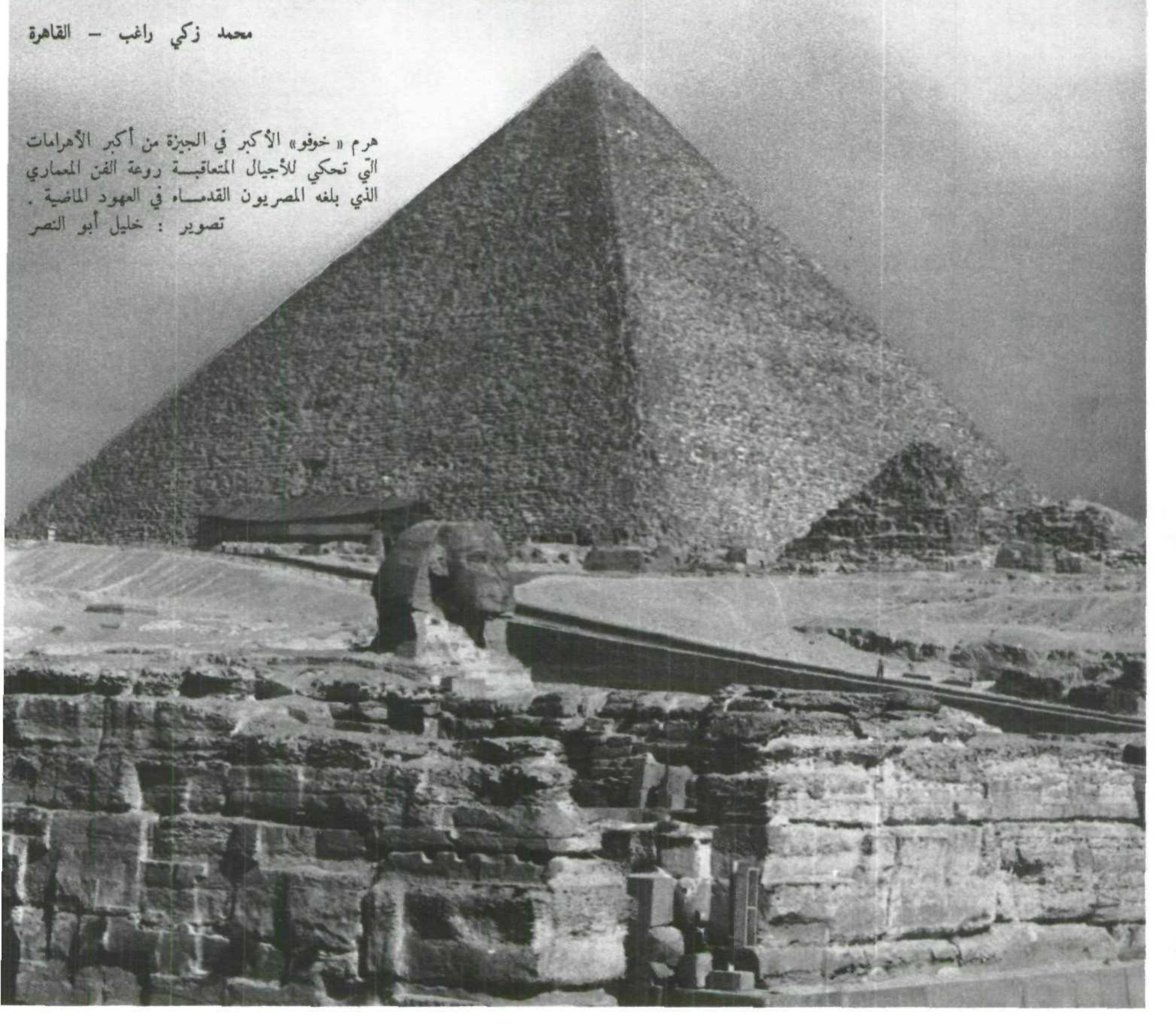
والزوار يتهافتون على استطلاع روائع الفن الهندسي التي انعكست في أهرامات الجيزة . ▼هرم « سقارة » المدرج من المعالم الأثرية التي تشهد ببراعة المصريين القدماء في فن العمارة والبناء .

ما زالت ماثلة حتى اليوم يزدان برسوم مختلفة بعضها يمثل مجموعة من الثيران وهي تجر كتل الحجارة الضخمة ، وبعضها يحمل أسماء أفراد الفرق التي اشتركت في نقل هذه الكتل وتشييدها . وتشير المصادر التاريخية الى أنه عثر على ورقة بردي في طياتها مواصفات أحد المنحدرات المشادة من الحجارة وطوله نحو ٤٠٠ متر وارتفاعه حوالي ٣٥ مترا . كما أن ثمة أدلة عديدة تثبت أن المعدات اليدوية التي استخدمت في اقتلاع حجارة الأهرام وحجارة المقابر كانت هي الوسائل الرئيسية التي اعتمدها البناؤون في ذلك العهد . ويبدو ذلك جليا في الرسوم المنقوشة على الآثار التي عثر على عدد منها مؤخرا ، وكذلك على جدران الأضرحة والمحاجر .

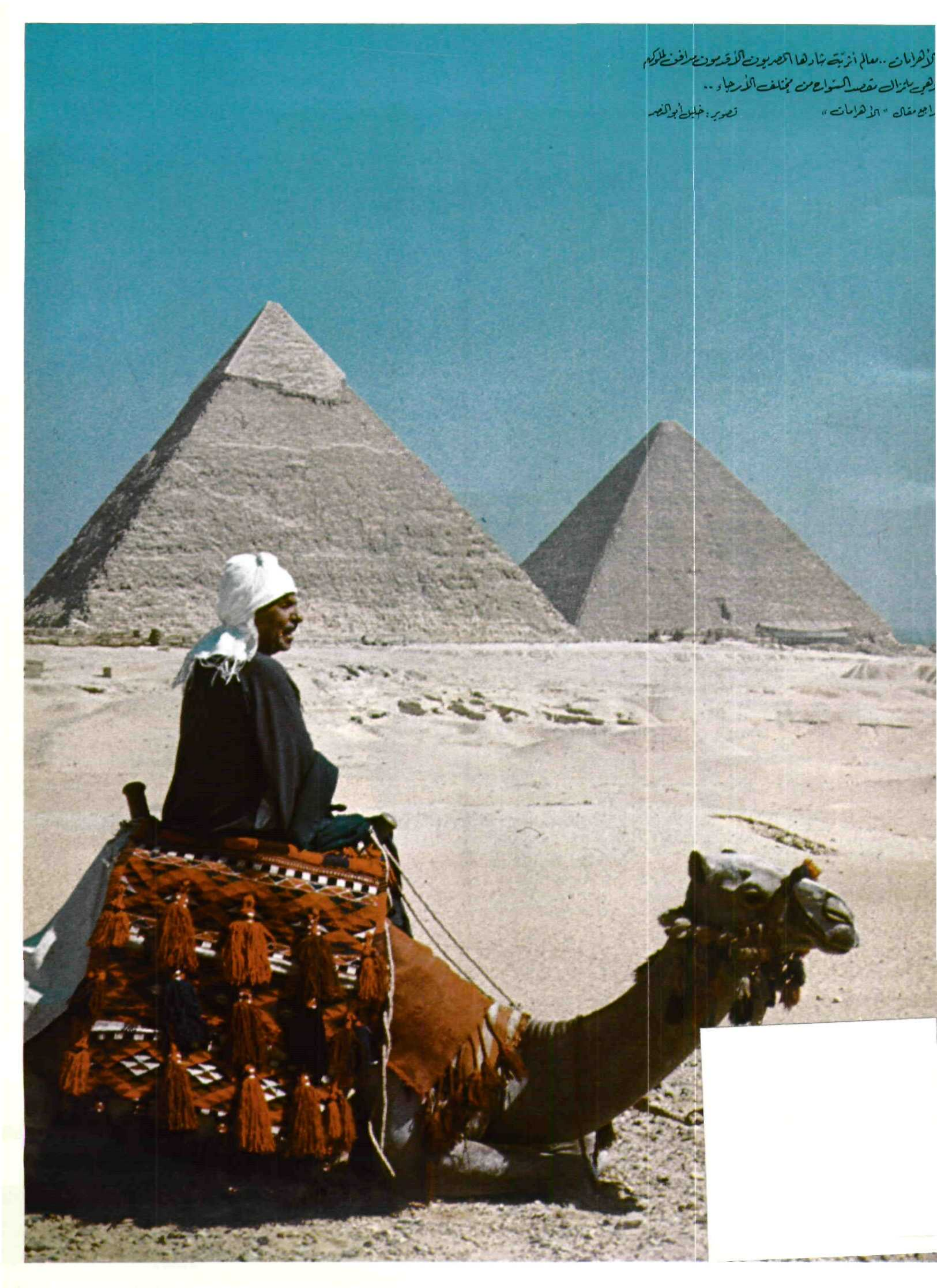
هذا ، وان الشقوق التي أحدثت في الكتل الحجرية لوضع الأسافين الخشبية لفصل الحجارة عن الصخور الأم ، يمكن رؤيتها بالآلاف في محاجر أسوان . كما يوجد أيضا في المحاجر كتل حجرية تؤكد أن حجارة البناء كانت تقصب تقصيبا مبدئيا قبل نقلها . كما أن هنالك رسوما هندسية غاية في الدقة يمكن التعرف من خلالها بسهولة الى البناء الذي تمثله . بقي أن نقول أن الخارطة الهندسية التي عثر عليها لقبر « رعمسيس الرابع » تحتوي على مقاييس لمختلف ممراته وقاعاته . وكذلك خارطة أحد البساتين تبين بوضوح عدد الأشجار التي يحتويها ذلك البستان . وعلاوة على ذلك فقد عثر في قطع فخارية أثرية يعود عهدها الى القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد ، على خارطة لحديقة حدد فيها حتى شكل الأشجار التي كانت قائمة قبل انشاء هيكل « دير البحري » الأثري .

ومع هذا الوصف كله ، فان العقل البشري يستصعب تقبل فكرة كون هذه الروائع الهندسية قد شيدت بمعدات بسيطة كالأزاميل والحبال والأخشاب والماء والرمال وغيرها ، ولا سيما وأن مثل هذه الوسائل لم تعد مستعملة في يومنا هذا . ولكن الأمر الذي لا يرقى اليه الشك هو أن الأهرام ما زالت حقيقة ماثلة للعيان ، ليس في بنائها أسرار خفية ولا معلومات غامضة وانما ستظل على مر الزمن مرآة صادقة ينعكس عليها مدى تفوق القدماء المصريين وبراعتهم في فن العمارة الضخمة بالأساليب البدائية ■

محمد زكي راغب — القاهرة



هرم « خوفو» الأكبر في الجيزة من أكبر الأهرامات التي تحكي للأجيال المتعاقبة روعة الفن المعماري الذي بلغه المصريون القدماء في العهود الماضية .
تصوير : خليل أبو النصر



الأهرامات .. معالم أثرية شادها المصريون الأقدمون مدافن لملوكهم
وهي ما تزال مقصد السواح من مختلف الأرجاء ..
راجع مقال " الأهرامات "   تصوير : خليل أبو النصر



جانب من معمل الألكلة في رأس تنورة وفيه يتم انتاج وقود الطائرات ذي الأوكتان العالي .. الصورة "للغلاف الخارجي"

تصوير : برنت مودي